اُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)

الداعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العــــدد : ٤ ، السنـــــة : ٤٩

ربيع الآخر ١٤٤٦هـ ، أكتوبر ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor

AL – DAIE

Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429

Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- المستقبل للإسلام مهما ... التحرير ٣

كلمة العدد

- شباب الأمة بين مطرقة الإلحاد وسندان إهمال شرائع الدين محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله ٩
- النظر المقاصدي في السيرة النبوية الشريفة الأستاذ رشيد كهوس ١٥

دراسات إسلامية

- القرآن معجزة الإسلام الخالدة الأستاذ محمد فريد وجدي ٢٢
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله ٢٥
- نسبة الإرجاء وقلة الحديث إلى الإمام أبي حنيفة
  وذمُّ الغلو في التقليد وإطالةِ اللسان على المجتهدين الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي ٣٠
- صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم أبو عائض المباركفوري ٣٨
- في المولد النبوي الكريم الشيخ عبد الفتاح القاضي ٤٤
- شهادات الأعداء بحق الإسلام وصاحبه عليه الصلاة والتسليم الأستاذ محمد حسان أنور القاسمي ٤٧
- صور من مواقف الجاحدين في ا لمكابرة والإعراض الشيخ عبد الغني مير غني ٥١

إشراقة

- سر الراحة القلبية أبو عائض القاسمي المباركفوري ٥٦

كلمة المحرر

المستقبل للإسلام مهما ...

الناظر في الأوضاع التي تمر بها البشرية في شتى مشارق الأرض ومغاربها يدرك جيدًا ما تعيشه المجتمعات الإنسانية البعيدة عن المنهج الرباني منهج رب السماوات والأرض وما بينهما من الفوضى العارمة في مُثُلها وأخلاقها وقوانينها ودساتير حياتها، ومن الخواء الروحي الذي أصبح سرطانًا يستعصي على الدواء والعلاج، ويتمدد في جسدها كله كالأخطبوط.

ورغم ما يواجه الإسلام من التحديات المتمثلة في التفاف قوى الشر والطغيان والكفر و الفسوق على شتى أنحاء العالم الإسلامي في خفاء حينًا، وعلنًا حينًا آخر بقوقعتها الصاخبة الفخمة، و التي تتلون تلون حرباء البر أو البحر؛ وما يثار ضده –الإسلام– من الافتراءات و الكذبات الصريحة الواضحة على تعاليمه وتوجيهاته النيرة الخيرة التي ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك؛ وما غشيه من غواشي الباطل، وما اكتنفه من ضروب الفتن المدلهمة في مختلف العصور؛ رغم هذا وذاك، وغير ذلك؛ فإن المستقبل هو للإسلام؛ فهو الدين الذي كفل للبشرية المتعطشة إلى السعادة والراحة النفسية كفل لها غذاءها المادي وغذاءها الروحي على حد سواء، فهو دين الله تعالى الخالد الذي كفل حفظه ورعايته ربُّ السماوات والأرض وما بينهما من حيوان وجماد: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ففي الآية– علاوة على التنويه بشأن القرآن الكريم– تأكيد بأن هذا الدين سيتم وينتشر ويستمر على تعاقب الأزمان والعصور حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مهما كاد ويكيد له أعداؤه، و تربصوا به الدوائر، وزرعوا في سبيله من العراقيل والعقبات الكأداء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

فالإسلام رغم كل ما يواجهه من التحديات الخافية والظاهرة لايزال يفتح عقولًا مغلقةً، وعيونًا عميًا، وآذانًا صمًا، ولايطيش له سهم إلى القلوب الواعية المنصتة لنداء الضمير، والمستجيبة لصوت الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها.

لقد شهد تاريخ الإسلام الدعوي أنه– الإسلام– فتح القلوب قبل أن يفتح البلاد والديار، وخاطب العقول السليمة قبل أن يخاطب الأسماع الثقيلة. فنفذت دعوته إلى القلوب،واستجابت لها الأفئدة، وارتاحت إليها النفوس، وانشرحت لها الصدور. والأمثلة على ذلك كثيرة كثرة تغنينا عن ترددها.

فلا راحة ولا طمانينة ولا سعادة للبشرية جمعاء إلا في ظل الدين الذي جاء ليدوم ما دام السماوات والأرض، جاء ليقدم لها الحلول الناجعة، ويصف البلسم الشافي لمختلف أمراضها وأدوائها الروحية والنفسية وانحرافها السلوكي وتحللها القيمي. فالإسلام دعوة إلى الغد السعيد، والرضى النفسي و الأفق النير المضيء. وكل سعي يعارضه قليلًا أو كثيرًا ليس إلا حرثًا في الهواء، و نقشًا على الماء،و زرعًا للأوهام والشكوك، ولن تزيد إلا رقعة الفراغ الفكري القاتل في النفوس. فالمستقبل للإسلام وحده، و الأديان الأخرى ريشة في مهب الريح. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الجمعة: ٣/صفر ١٤٤٦=٩/أغسطس٢٠٢٤م)

شباب الأمة بين مطرقة الإلحاد وسندان إهمال شرائع الدين

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

هذه آية من سورة البقرة ونظائرها في القرآن الكريم كثيرة في عدد من السور والآيات. و كان إبراهيم وابنه إسماعيل حين رفعَا بناء الكعبة يدعوان الله تعالى لأنفسهما ولذريتهما بما يعود بالنفع عليهم. وحاصل هذا الدعاء هو طلبهما نفعًا دينيًا لأولادهما كما دعوا لهم بالنفع الدنيوي أيضًا، ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة:١٢٥].

فالإنسان لايستغني عن النفع الدنيوي والنفع الأخروي، ولذا علمه الله تعالى الدعاء بالحسنة في الدنيا وفي الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١]، وأثنى على من جمع في دعائه بين خير الدنيا و خير الآخرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢].

والناظر في أحوال شباب اليوم يرى فئةً منهم قد هوت، وغوت، ومالت إلى الإلحاد و الزندقة؛ بل استساغته، وأوغلت فيه، لما تواجه من الأفكار التي تغزو عقله وفكره وأخلاقه في الصميم، ويغذيها أوهام العقل، وأوهام العلم، وسلطان الجهل، وكيد الأعداء؛ وهذا ما عليه معظم الشباب المثقف بالثقافة الحديث العلمية الغربية، وقليل منهم وإن لم يلِغ في الإلحاد إلا أنه مني بالإهمال في الدين وأحكامه وشرائعه ومتطلباته حرصًا على مواكبة العصر، ومسايرةً لركب الحياة الدائب في سيره وازدهاره وانتشاره.

إن المسلمين عامةً والشباب خاصةً قد تسرب إليهم مرض خطير وداء وبيل، وسم زعاف وهو قلة العناية بالدين وإهمالهم لشعائره وأحكامه على مختلف المستويات، وبلغ بهم الحال إلى أن صاروا لايستحقون في الواقع أن نطلق عليهم مسلمين، ونعم ما قال الشاعر الأردي ما معناه:

«إنكم نصارى في الأزياء، وهندوس في الحضارة ... هؤلاء مسلمون يستحيي منهم اليهود»

إننـا نُـدعى مـسلمين،ولكن هـل رجعنـا إلى أنفسنا ونظرنا في مدى قربنا إلى الإسلام وبعدنا منه؟ وهـل الأقـوال والأعـمال التـي نأتيهـا تنـسجم مـع المفاهيم والرؤى الإسلامية؟ قد ابتعدنا عن الإسلام الـذي جاء به محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من رب العـالمين كثـيرًا، ولـو أن أحـدًا مـن أصـحاب رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قُدِّر له أن يطلع علينا لتنكر لنا ولما نحـن عليـه مـن الـدين الـذي نـدين الله تعـالى، ثـم نتبجح بهذا الانتماء المزيف إليه.

وهذا الدعاء الذي دعا به إبراهيم عليه السلام يتناول عدة خصال: الأولى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، والثانية: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الثالثة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

قال الإمام الرازي رحمه الله:

«واعلم أنه تعالى لما طلب بعثة رسول منهم إليهم، ذكر لـذلك الرسول صفاتٍ. أولها: قولـه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، وفيه وجهان. الأول: أنها الفرقان الـذي أنـزل عـلى محمـد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه. الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهم: أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها ويحملهم على الإيمان بها. وثانيها: قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه، وذلك لأن التلاوة مطلوبة لوجوه: منها بقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر فيبقى مصونًا عن التحريف والتصحيف، ومنها أن يكون لفظه ونظمه معجزًا لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومنها أن يكون في تلاوته نوع عبادة و طاعة، ومنها أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة، فهذا حكم التلاوة إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأشرف تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام، فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدىً ونورًا لما فيه من المعاني والحكم والأسرار، فلما ذكر الله تعالى أولًا أمر التلاوة ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. الصفة الثالثة: من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الحكمة. واعلم أن الحكمة هي: الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيمًا إلا من اجتمع له الأمران. وقيل: أصلها من أحكمت الشيء أي رددته، فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول و الفعل، ووضع كل شيء موضعه. قال القفال: وعبر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية. واختلف المفسرون في المراد بالحكمة هاهنا على وجوه. أحدها: قال ابن وهب: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: معرفة الدين، والفقه فيه، و الاتباع له. وثانيها: قال الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الحكمة سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. و هو قول قتادة، قال أصحاب الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والدليل عليه أنه تعالى

ذكر تلاوة الكتاب أولًا وتعليمه ثانيًا ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئًا خارجًا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام. فإن قيل: لم لا يجوز حمله على تعليم الدلائل العقلية على التوحيد والعدل والنبوة؟ قلنا: لأن العقول مستقبلة بذلك فحمل هذا اللفظ على ما لايستفاد من الشرع أولى. وثالثها: الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل، وهو مصدر بمعنى الحكم، كالقعدة والجلسة. والمعنى: يعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل أقضيتك و أحكامك التي تعلمه إياها، ومثال هذا: الخبر والخبرة، والعذر والعذرة، والغل والغلة، والذل والذلة. و رابعها: ويعلمهم الكتاب أراد به الآيات المحكمة. والحكمة أراد بها الآيات المتشابهات. وخامسها: يعلمهم الكتاب أي يعلمهم ما فيه من الأحكام. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع وما فيها من وجوه المصالح والمنافع، ومن الناس من قال: الكل صفات الكتاب كأنه تعالى وصفه بأنه آيات، وبأنه كتاب، وبأنه حكمة. الصفة الرابعة: من صفات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين. أحدهما: أن يعرف الحق لذاته. والثاني: أن يعرف الخير لأجل العمل به، فإن أخل بشيء من هذين الأمرين لم يكن طاهرًا عن الرذائل والنقائص، ولم يكن زكيًا عنها، فلما ذكر صفات الفضل والكمال أردفها بذكر التزكية عن الرذائل والنقائص، فقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾. واعلم أن الرسول لا قدرة له على التصرف في بواطن المكلفين، وبتقدير أن تحصل له هذه القدرة؛ لكنه لايتصرف فيها وإلا لكان ذلك الزكاء حاصلًا فيهم على سبيل الجبر لا على سبيل الاختيار، فإذن هذه التزكية لها تفسيران. الأول: ما يفعله سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة، حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم، و تلك الأمور ما كان يفعله عليه السلام من الوعد والإيعاد، والوعظ والتذكير، وتكرير ذلك عليهم، ومن التشبث بأمور الدنيا إلى أن يؤمنوا ويصلحوا، فقد كان عليه السلام يفعل من هذا الجنس أشياء كثيرةً ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ولذلك مدحه تعالى بأنه على خلق عظيم، وأنه أوتي مكارم الأخلاق. الثاني: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، يشهد لهم بأنهم أزكياء يوم القيامة إذا شهد على كل نفس بما كسبت كتزكية المزكي الشهود، والأول أجود؛ لأنه أدخل في مشاكلة مراده بالدعاء؛ لأن مراده أن يتكامل لهذه الذرية الفوز بالجنة، وذلك لا يتم إلا بتعليم الكتاب و الحكمة، ثم بالترغيب الشديد في العمل، والترهيب عن الإخلال بالعمل وهو التزكية، هذا هو الكلام الملخص في هذه الآية».اهـ

وقال ابن عاشور: «وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها؛ لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨،١٩] العلم تحصل به

التزكيـة وهـي في العمـل بإرشـاد القـرآن. وقولـه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تذييل لتقريب الإجابة أي لأنك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء. والحكيم بمعنى المحكم هو فعيل بمعنى مفعل وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠] وقوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]».اهـ

وذكـر القـرآن الكـريم في آيـة البقـرة هـذه وفي سورة آل عمران، وسورة الجمعة – بألفاظ متجانسة مماثلـة – ثلاثـة أهـداف لبعثـة النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعبادة أخرى ثلاث وظائف ومسؤوليات بصفته نبيًـا و رسـولًا: تـلاوة الآيـات، وتعلـيم الكتـاب والحكمة، وتزكية الأخلاق ونحوها.

فـأول هـذه الأهـداف هـو تـلاوة الآيـات، والتلاوة راجعة إلى الألفاظ والتعليم إلى المعاني. و الفـرق بيـنهما هنـا يـشير إلى أن ألفاظـه مقـصودة بمفردها، وأن تلاوته وحفظه من أهم الفروض و الواجبات. وهنا يطرح السؤال نفسه،وهو أن النبي ﷺ تلقى من الله تعالى مباشرةً، والمخاطب المباشر لهذا القرآن هم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ،الذين كانوا على علـم بلغته؛ بـل كـانوا عـلى ذروة الفصاحة والبلاغة فيهـا، وفي غنـى عـن تفسيرها، فـما الـذي أحـوج إلى اعتبـار تـلاوة الألفـاظ هـدفًا مـستقلًا عـن هـدف التعلـيم، في حـين أن الهـدفين يتحـدان في العمـل؟ وحـين نمعـن النظـر في الآيـات القرآنيـة نتوصـل إلى أمـرين. الأول: لـيس القـرآن كعامـة الكتـب التـي يقصد فيها المعاني، وأما الألفاظ فلها مكانة ثانوية، ولابـأس أن يتسرب إليهـا بعـض التغيـير والتبـديل. وأمـا القـرآن الكـريم فـأمره مختلـف عنهـا، فنظمـه ومعنـاه كلامهـما مقـصود، فـشرحت هـذه الآيـة مـن وظـائف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تـلاوة الألفـاظ وظيفـةً مستقلةً عن وظيفة تعليم الكتاب، ففيه إشارة إلى أن نظمـه مقـصود كـما أن معانيـه مقـصودة أيـضًا. فكـان أحـد واجبـات الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـيما يخـص القرآن تلاوة النظم وحفظه.

والهدف الثاني تعليم الكتاب، فكان الصحابة رضي الله عنهم – وهـم أعلـم الناس بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعـاني القـرآن، وأقـربهم إلى فهمهـا- لايكتفـون بفهـم المعنى و العمل بما فيه، فإن الفهـم والعمل لايتطلب أكثر من قراءته مرةً واحدةً، وإنما داومـوا عـلى تلاوتـه، ومـنهم مـن كـان يختم كـل يـوم ختمةً واحدةً، ومنهم في يومين، ومنهم في ثلاثة أيام، وكـل ذلـك يـدل عـلى أهميـة تـلاوة الـنظم عنـدهم ومكانته في قلوبهم.

والهـــدف الثالـــث مـــن بعثـــة الرســـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزكيـة الـنفس، أي تطهـيرهم مـن النجاسات الظاهرة والباطنة. والنجاسات الظاهرة لاتخفـى عـلى أحـد مـن المـسلمين، وأمـا النجاسـات الباطنـة مـن الكفـر والـشرك والتوكـل عـلى غـير الله تعـالى والعقيـدة الفاسـدة، وكـذلك الكـبر والحسد و حـب الـدنيا ونحـو ذلـك، وهـذا كلـه دخـل في تعليم

القرآن الكريم إلا أن القرآن الكريم جعل التزكية واجبًا مستقلًا من واجبات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في إشارة إلى أنه كما لايحصل علم وفن بمجرد استيعاب نظمه وألفاظه، كذلك لايحصل الكمال في فن بمجرد تحصيله علمًا ونظرًا؛ بل لابد من التربية على يد أهل التربية، والتعود له، ولذا استمر منذ أول البشرية سببان لإصلاح البشر وهدايتهم وإرشادهم. الأول: هو إنزال الكتب السماوية، والثانية: الرسول الذي يقوم بتعليمها. فلم يقتصر الأمر على إنزال الكتاب، كما لم يقتصر على إرسال الرسل؛ بل جمع بينهما في كل عصر وحقبة من الزمان لتحقيق هذا الهدف. فالإنسان في حاجة إلى القانون الإلهي - وهو المسمى بالكتاب أو القرآن - حاجته إلى من يعلمه ويربيه. ومن هنا كانت بداية الإسلام بكتاب ورسول. وبتلاقي الأمرين وتعانقهما خرج مجتمع بشري مثالي لم يشهده التاريخ البشري على طول أمده. وهذا ما صلح به أول هذه الأمة لن يصلح آخرها إلا به.

فما نرى في شبابنا اليوم من التشتت الفكري، والإلحاد وإهمال الشرائع وشعائر الدين مرده إلى حرمانه منهما أو من أحدهما في قليل أو كثير. وتوفير فرص التزود بعلوم الكتاب والسنة والتربي على أيدي الفئة النخبوية من العلماء الصالحين ومجالستهم وعرضهم للمشاكل التي يواجهونها عليهم، والتواصل معهم هو صمام أمن من الإلحاد والزندقة وإهمال الدين في شتى صوره وأشكاله، وهو طوق النجاة من هذه الويلات الفكرية والسلوكية التي وقع في حضيضها شباب اليوم. وهذا ما يوجهنا إليه القرآن الكريم في آياتٍ عدةٍ، فيقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]. وقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

والتاريخ البشري شاهد على أن الله تعالى أنزل في كل عصر لإصلاح الأمة وتربيتها توجيهاته السامية، ثم قيض قدوةً من الرجال يعينونهم على استيعاب هذه التوجيهات وتجسيدها في واقع الحياة، من خلال نماذج واقعية يقدمونها لهم، وإن الفجوة –قليلها وكثيرها– بين هؤلاء و بين من يريد حياةً آمنةً مطمئنةً في الدنيا والآخرة من شأنها أن تحول دون الهدف المنشود من الحياة. وقد أدركت القوى المعادية للإسلام أهمية ذلك، ففي جانب إذا كانت تحاول تشويه التوجيهات الإسلامية، وزرع الكراهية والنفور منها بأسماء براقةٍ متنوعةٍ رنانةٍ، من حرية المرأة و التخلص من الرجعية، ومسايرة ركب الحياة، ففي جانب آخر لم تدخر جهدًا في تشويه سمعة القائمين على الدين، وخلقِ الفجوة بينهم وبين عامة المسلمين، حتى عادت فئة من المثقفين بالثقافة العصرية الدين وعلماءه عقبةً كأداء في سبيل التطور والعلم الحاضر.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

مثلًا: يأكله الرجال دون النساء، أو يأكله الرهبان المجاورون في المعابد دون غيرهم. وقد فرضوا هذه القيود حسب زعمهم على بعض الأنعام والحرث، مما نذروه للأصنام. وكانوا يحرِّمون كذلك ركوب ظهور بعض الحيوانات والحمل عليها. وجعلوا على أنفسهم ألا يسموا الله تعالى على بعض الأنعام عند الذبح أو الركوب أو الحلب مخافة أن يشركوا الله تعالى بالأصنام. ومما زاد الطين بلةً أنهم كانوا يعزون هذه الخرافات والجهالات إلى الله تعالى، كأن الله تعالى - العياذ بالله - أمرهم بذلك، ولاينالون رضاه إلا به، وجمعوا بين هذه المعاصي والافتراء والبهتان، وسيتعرضون عما قريب للعقوبة على هذه الإساءات.

وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ومما اخترعوه أن الجنين إن خرج حيًّا بعد ذبح البحيرة والسائبة أكل منه الرجال دون النساء، فإن خرج ميتًا فهم فيه شركاء. وليس الله تعالى بغافل عن ذنوب من يخترع أمثال هذه الأحكام التي لايعضدها دليل.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

وهل من فساد وضلال وخسارة أشد من أن حرِموا أولادَهم وأموالهم من غير مبرر في الدنيا، واشتهروا بالقساوة وسوء الخلق والجهل. وبالتالي استحقوا العذاب الأليم في الآخرة، ولم ينتفعوا بعقولهم ولا عرفوا الشريعة، فأنى يهتدون إلى الصراط المستقيم؟

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

المعروشات كالعنب وغيره، وغير معروشات كالنخل والأنبج وغيرهما، من الأشجار ذوات الجذوع أو البطيخ الأحمر وغير الأحمر، التي تتمدد على الأرض من غير سند.

فائدة:

أي: المتشابهة في الصورة، والمختلفة في الطعم.

فائدة:

أي: الحبوب والفواكه التي خلقها الله تعالى لاتمسكوا عن أكلها بغير دليل، مع مراعاة أمرين: الأول: إعطاء حق الله تعالى عند حصادها وقطافها. والثاني: عدم الإسراف وبذلها في غير وجهها. واختلف أهل العلم في المراد بحق الله تعالى هنا. فقال ابن كثير رحمه الله: كان يجب في أول الأمر إخراج جزء من الخارج من الزرع والنخل في مكة المكرمة، وكان يصرف ذلك إلى المساكين والفقراء. ثم جاء تعيين مقداره وتفصيله في السنة الثانية من الهجرة في المدينة المنورة. أي: العشر في الخارج من الأراضي التي تسقى بماء السماء إذا لم تكن خراجيةً، وربع العشر فيما يسقى بغيره.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

الحمولة: كالجمل وغيره، والفرش: الأنعام ذات الأجسام القصيرة كالضأن والغنم.

ويجب الانتفاع بنعم الله تعالى. واتباع خطوات الشيطان هو أن يحرموها من غير مبرر وبغير حجة شرعية، أو يتخذوها سببًا إلى الشرك وعبادة الأصنام. وهل من عدواة أفضح من أن الشيطان حرمكم هذه النعم في الدنيا، بالإضافة إلى عذاب الآخرة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾

أي: ذكرًا وأنثى، وكذلك في كل نوع زوجان فكان المجموع ثمانيةً.

فائدة:

أي: يرجع التحليل والتحريم إلى الله تعالى فقط، فإذا ذهبتم إلى تحريم الذكر أو الأنثى أو ما في البطن على جميع الناس أو على بعضهم، كما سبق في الآية الماضية، فما الدليل عليه عندكم؟ و حيث تلاشى الدليل على أنه من أمر الله تعالى، كان تحريم ما خلقه الله أو تحليله بأهوائكم يعني أنكم اقترحتم لأنفسكم منصب الألوهية، أو تفترون على الله تعالى عمدًا، والوجهان من الموبقات المهلكات.

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ

ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

إنما يرجع تحليل الأشياء وتحريمها إلى الله تعالى. وأمر الله تعالى ينزل إما بواسطة الأنبياء أو يخاطب الله تعالى أحدًا مباشرةً فيعرفه، وقد انتفى الوجهان هنا، ونبه على انتفاء الوجه الأول في قوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾إلخ، وعلى انتفاء الوجه الثاني في قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام:١٤٤]. وهل بقي بعد ذلك في دعاوي المشركين إلا الافتراء والإضلال؟ فمن أظلم ممن افترى على الله تعالى، وأفتى الناس بالباطل رغم كونه صفر اليدين من العلم والتحقيق، فأضلهم، فمن تجرأ على مثل هذا العناد والعنت، وشمر ذيله للولوغ في مثل هذا الظلم العظيم، من العبث أن نرجو اهتداءه.

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾

يقول الشاه - عبد القادر رحمه الله-: أي: الحرام من الحيوانات التي جرت العادة بأكلها هو هذا. وأراد بهذه الآية تنبيه الكفار على أن ما ذكر آنفًا كان حلالًا، وقد حرمتموه. وفيما يلي بيان ما هو حرام في الواقع، وأنتم تستحلونه. وتفسير مضمون الآية وبيانه سبق في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة:٣] فليرجع إليه.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

أي: الحرام في الأصل ما ذكرَ آنفًا، اللّٰهم إلا أنه جاء تحريم بعض الأشياء تحريمًا موقتًا على بعض الأمم، كما حرمنا على اليهود لظلمهم كل ذي ظفر من الحيوان غير مشقوق الأصابع، كالإبل والزرافة والبط ونحوهما، وكذلك شحوم البقر والغنم، التي حملتها ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم مثل شحم الكلية. ودعوى بني إسرائيل بأن هذه الأشياء ظلت حرامًا منذ عهد إبراهيم ونوح عليهما السلام. والحق أنه لم يكن شيء منها حرامًا على عهد إبراهيم عليه السلام، وإنما حرمت على بني إسرائيل لعصيانهم وفسوقهم، ومن ادعى خلاف ذلك فقد كذب. كما تحدى هؤلاء الأدعياء في أول الجزء الرابع من القرآن الكريم قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:٩٣].

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

أي: لازلتم في أمن برحمة الله تعالى من العذاب، فلا تظنوا أنه تأخر. كذا في موضح القرآن.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

طالب الركوعُ السابق المشركين بأن يأتوا بدليل وبرهان على ما حرموه من الطيبات، ونسبوا التحريم إلى الله تعالى. وهنا إشارة إلى الدليل الذي عسى أن يقدموه، أي: لو شاء الله تعالى كان قادرًا على أن يصرفنا نحن وآباءنا عن هذا التحريم؛ بل عن جميع أعمال الشرك وأقواله، وحيث إنه لم يصرفنا عنه، واستمر الأمر على ذلك، تبين أن أعمالنا هذه مرضية عنده، ولو كرهها لم يتركنا أحرارًا في اقترافها بعدُ. والجدير بالذكر هنا أن الحكومة الحسنة السمعة والحكيمة لاتبطش بالخارج عليها ويعلقه على المشانق في اليوم الأول رغم توفر الخبر الكافي واليقين، وإنما تراقب حركاته وتصرفاته، وربما أرشدته إلى تصحيح تصرفاته، ووفرت له فرصة التفكير في مثل هذه الأعمال و إصلاحها، وربما تمهله إذا قنطت من إصلاحه، وذلك لتتوفر لها مواد قوية ومتكاملة تؤكد بغيه وخروجه على الدولة، فتؤكد فرطَ بغيه وخروجه المنتاهي بصفة قانونية على رؤوس الأشهاد. وحينئذ إمهال المجرم، وعدم الاستعجال في معاقبته هل يعني أن الحكومة لاترى تصرفاته بغيًا وخروجًا؟ فإن جريمة هؤلاء الأفعال والتصرفات ثابتة في عين الحكومة أولًا بمقتضى القانون المنشور، و ثانيًا: حين يؤخذ الجاني بعد نهاية مدة المهلة الممنوحة له إلى قفص المحكمة، ويتم تأكيد وبيان جريمته بصورة نظامية، فيواجه عقوبة الإعدام أو الحبس الدائم، فيرون رأي العين مدى جريمته في عين الحكومة. وعلى كل، عدم استعجال الحكومة بالمعاقبة على جريمة رغم العلم بها وقدرتها على المعاقبة، ليس دليلًا على أنها ليست جريمة. وقِس عليه أن أحكم الحاكمين سبحانه ظل يطلع عباده منذ خلقهم إلى يومنا هذا بواسطة قوله الصادق أو خلفائه المطهرين على جميع أنواع القوانين والأحكام، ويبين لهم ما يرضيه وما يُغضبه، وجاء التذكير بهذه الأحكام والتوجيهات بصورة متواصلة حينًا، وعلى فترات حينًا آخر. واستمتع العصاة بالمسامحة ما لم يتجاوزوا حد المسامحة.

كما أعمل التنبيهات البسيطة أيضًا من حين لآخر إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وأمهل من كان

عيلت شقاوتهم، وذلك ليجعلوا أنفسهم بصورة واضحة وعلنية أحق بالعقاب الإلهي المتناهي، ويصيروا مصيرهم. ولقد ذاق كثير من الأمم بعض العقوبات على جرائمهم. وما دام الأمر كذلك فكيف يستدل بولوغ أمة من الأمم في الجرائم أيامًا معدودات، وبعدمِ مؤاخذتها عليها على أن هذه الجرائم -العياذ بالله- مرضية عند الله تعالى، وإلا لم يمهلهم الله تعالى ولو ساعةً واحدةً. فإن قيل: هلا خلق الله تعالى البشر من اليوم الأول خلقًا لايسمح له بالميل إلى المعصية إطلاقًا، وهلا فُطِر على عدم جنوحه إلى الشر أصلًا، ثم يحمله بفطرته على ألا يختار إلا الخير والصلاح.

وهذا السؤال - إذا تأملنا فيه - يعني أن الإنسان لمَ لم يُخلَق خلقًا لايبقى معه بشرًا، فإما أن يتحول آجرًا وحجرًا في حرمان من الإدراك والشعور والكسب والاختيار، أو يتحول حميرًا وأفراسًا ونحوها من الحيوانات، التي تحمل بعض الشعور والإرادة، والتي تدور دوران السانية منذ الأزل إلى الأبد داخل أفعاله وأحواله المتشابهة أو يرفع عزًا وكرامةً فيصطف مع الملائكة، المضطرين إلى الطاعة والعبادة المحضة. وحاصله عدم إخراج هذا النوع الراقي الذي يتمتع بالإدراكات الكلية والتصرفات الكسبية العظيمة إلى حيز الوجود. وأرى أنه لايتجرأ بشر - يدعي بملء فيه الكرامة والشرف - على أن يعارض نوع نفسه أصلًا. فإذا كان لا محيص - لاستكمال نظام العالم هذا - من خلق هذا النوع البشري مع ما له من القوى العقلية والعملية وما له من الحرية الحاضرة في الكسب والاختيار، كان لابد من قبول آثار ونتائج نظام الكون هذا أيضًا. وكيف يصح أن يتجلى مظاهر متنوعة كثيرة من حرية البشر العقلية والكسبية في شعب الحياة المادية والمعاشية، ثم يضطر هذا البشر نفسه - الذي يحمل نفس القلب والعقل وقوة الكسب والاختيار- إلى سلوك طريق واحد في المجالات المعادية والروحانية، ويعجز عن أن يطأ بقدمه حيث شاء هنا وهنا. فإذا كان النوع البشري لابد من تواجده بحقيقته الموجودة في مجموع العالم، كان لابد من اختلاف الخير والشر أيضًا. ووجود الاختلاف هذا أعظم دليل على أن كل فعل يقع ليس من اللازم أن يكون مرضيًا عند الله، وإلا لزم - عند تواجد الأفعال المختلفة المتضادة- أن نقول مثلًا: إن الله تعالى يرضى بحسن الخلق وبسوء الخلق أيضًا، ويرضى بالإيمان وعدم الإيمان أيضًا، وهو صريح البطلان.

إن الله تعالى لو شاء لخلق البشر كلهم خلقًا يضطرون معه إلى سلوك طريق واحد، وحيث لم يقع ذلك، كان ذلك حجةً بالغةً على كل من يقول ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، ويؤكد به التلازم بين

مشيئة الله تعالى ورضاه، فإنه مع توفر هذا الاختلاف الشديد لزم أن نقول -على وفق مبدئهم- مثلًا: إن التوحيد الخالص صحيح عند الله تعالى، وهو يرضى به، وكذلك نقيضه الشرك الجلي أيضًا، وقِس على هذا. وهذه الأدلة تؤكد أن استدلال المشركين ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ باطل محض وفي مهب الريح، و لايملكون مبدأً علميًا يقدمونه إلى العقلاء. وإنما يخرصون ويرجمون بالغيب، يرده حجة الله البالغة كل الرد، وقد أشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]. أي: لم يفطر الله تعالى البشر على أن يسلكوا جميعًا طريقًا واحدًا، وقد منحه الله تعالى حرية الكسب و الاختيار، مما لايقدر على منحه خلق من المخلوقات. فلزم أن تختلف الطرق والمسالك عند استعمال هذه الحرية، هذا يختار الخير، وذلك يختار الشر. وهذا يتجلى فيه رضا الله تعالى ورحمته، وذاك يتجلى فيه غضب الله تعالى. فيتحقق بذلك على الوجه الأتم الهدف النهائي – الذي أراده الله تعالى بخلق هذا الكون- أي إظهار صفات جماله وجلاله، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢].

وأما لو جعلنا العالم على حالة واحدة لأمكن ظهور بعض الصفات الإلهية وخلت بعض الصفات الإلهية الأخرى من محل تظهر فيه. وهذا الذي قلناه يرجع إلى أن الغرض من قول المشركين (لَوْ شَاءَ اللهُ) تأكيدهم استحسان خرافاتهم وكفرهم، كما يتجلى من أحوالهم، وأما لو أرادوا بهذا القول مجرد الاعتذار، بأن الله تعالى يحملنا على فعل ما شاء، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فهو مشيئته. فما كان للرسل والأنبياء أن يزاحمونا بإزاء مشيئة الله تعالى، وما لهم يخوفوننا من عذاب الله تعالى؟ فالجواب عنه أن الله الذي تكسبون هذه الأفعال الشنيعة بمشيئته، يزاحمكم الأنبياء والرسل بمشيئته هو، وهذه المشيئة هي التي تنزِّل العذاب المناسب على كسبكم. كما أن الله تعالى خلق الحية، وهو الذي يرتب الهلاك على من لسعه الحية، سواء كان اللديغ له يد في لسع الحية أم لا، كذلك من قدرته ومشيئته أن أودع شرككم وكفركم الهلاك الدائمَ، وأودع الإيمان والعمل الصالح تأثير النجاة الأبدية. وبهذه المشيئة والقدرة يخلق الأسباب والمسببات كلها. فإذا كنتم تحتجون على عدم إمساككم عن كفركم وشرككم بعموم المشيئة، فاعتبروا إرسال الرسل وإنزال العذاب ونحوهما من نتائج مشيئته هو، واستوعبوا حجة الله البالغة. ولو شاء الله تعالى لهدى الناس جميعًا، ولكن لم يفعل لسوء استعدادكم. ولابد أن يترتب الأثر الطبيعي لما يصدر منكم من الأعمال متمثلًا في العذاب لسوء استعدادكم، والعياذبالله.

* * *

النظر المقاصدي في السيرة النبوية الشريفة

بقلم: أ. د. رشيد كهوس (*)

تقديم:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تظل السيرة النبوية العطرة مجرد جزء من التاريخ، ذلك بأن الأمة المسلمة اليوم في أشد الحاجة إلى معرفة المنهج النبوي في إصلاح النفس وصناعة الإنسان وبناء المجتمع والدولة والعمران، والذي تكشفه لنا سيرةُ سيدِنا رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للتأسي به في جوانب الحياة الإنسانية كلها، وإن تحقيق هذا مرتبط بإعادة قراءة النص السيري قراءةً مقاصديةً، والوعيِ بها، وتجديدِ فهمها، بما يتوافق مع قضايا العصر ويؤكد خلود السيرة النبوية وصلاح تنزيلها في كل الأجيال.

وإن تفاصيل السيرة النبوية الغراء في حقيقتها عبارة عن منهاج المقاصد، إذ هي الوعاء الذي استوعب المقاصد قولًا وفعلًا، وتنظيرًا وتنزيلًا، تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتجيب عن أسئلة كل عصر وتحل مشكلاته ونوازله.. ذلك بأن المشاهد السيرية ليست قوالب جامدةً، ولم تكن خاصةً بعصر النبوة فقط؛ بل هي استوعبت كلَّ مجالات الحياة الإنسانية، والحالات التي ستمر بها المجتمعات البشرية.. لأنها مصدرُ الأسوة والقدوة لكل الناس في سائر العصور..

ذلك بأنها تحمل في تفاصيلها وكلياتها منهاج حياة رسولٍ ونبيٍ أنقذ البشرية جمعاء وأخرجها من الظلمات إلى النور، تجسدت فيها تعاليم الإسلام وأحكامه وعقائده وتشريعاته وأخلاقه، بصورة كاملة عملية، فكانت للمسلمين نورًا يستضيئون بها، وهاديًا لهم في سبل الحياة وظلماتها..

من أجل ذلك أحبت الأمة رسالته ﷺ الخالدة، وتعلقت بسيرته الطاهرة، وشخصه العظيم؛ وسجلت أوصافه وأخلاقه وشمائله، واعتنت بأيامه ومشاهده، ذلك بأن سيرته الخالدة تمثل مرحلة تشريعٍ بالنسبة للبشرية جمعاء؛ بل إنها مرحلة ميلاد الإنسان من جديدٍ..

وعلى الرغم من المؤلفات السيرية الكثيرة قديمًا وحديثًا، رغم رصانتها وجدتها، إلا أن أغلبها قد اتسم بالمنهج السردي والقراءة الحرفية والنظرة التجزيئية لنصوص السيرة ومشاهدها..، قراءة اقتصرت على جوانب دون أخرى، الأمر الذي نتج عنه تأويلات فاسدة تقصر عن إدراك روح الوحي ومقاصد الشرع التي تجلت في تفاصيل السيرة الغراء..

في حين أن في السيرة النبوية العطرة ثروةً

(*) أستاذ التعليم العالي ورئيس شعبة أصول الدين وتاريخ الأديان- كلية أصول الدين بتطوان-جامعة عبد المالك السعدي-المغرب

زاخـرةً يمكـن اسـتثمارها في إعـادة تـشكيل مـنهج التفكـير والعمـل لـدى المـسلم، والعـودةِ بالأمـة إلى وظيفـة الـشهادة وقـيم الخيريـة والوسـطية والعالميـة، والنهوض بأمانة الاستخلاف في الأرض..

والحاصـل أن الأمـة اليـوم في أمسّ الحاجـة إلى النظـر المقاصـدي في الاسـتمداد مـن الـسيرة النبويـة العطـرة.. فـالنظر المقاصـدي في الاسـتمداد الـسيري إنـما اسـتدعته مقتـضيات تحقيـق خلودهـا والامتـداد بهداياتها، وبسطها على جميع جوانب الحياة والتدليل على رعايتها لمصالح العباد، وتخليص الفهم والفقه وعلى الأخص في عصور التقليد والجمود والركود العقلي من النظرة الجزئية والصورة الآلية المجردة البعيدة عن فقه الواقع، حيث انتهى الأمر إلى قواعد مجردةٍ وقوالب بعيدةٍ عن الارتباط بالغايات الأصلية التـي قـد تكـون انتهـى إليهـا، إلى درجـة قـد تفـوت المـصلحة، وإعـادة توجيهـه صـوب تحقيـق مـصالح العباد في معاشهم ومعادهم، وهي الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة وبعث سيد الخليقة وكانت الرسالة، ومعالجة مشكلات المجتمع والتعامل مع قضاياه وحاجاته[1].

١- السيرة النبوية تعبير واقعي عملي عن مقاصد الشريعة:

إن السيرة النبوية جسدت في حقيقتها صورة الإسلام الحية، ومقاصده العامة والخاصة، وانطوت عـلى أرقـى المقاصـد وأكبرهـا، وأعـلى المـصالح وأعظمها، فمنها استفيدت العديد من الخصائص العملية العامة للإسلام المتصلة بالمقاصد الشرعية، على نحو خاصية التيسير والتخفيف ورفع الحرج، والوسـطية والاعتـدال، والعـدل والرحمـة، واللـين والواقعية وغير ذلك من الخصائص الكلية والسمات العامة... ومن ثم كانت مفتاحًا لفهم صناعة الحياة الإنسانية والنهضة الإسلامية منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا فلماذا لا تكون مفتاحًا لفهم الحاضر، وإصلاح الواقع وإبصار المستقبل من أجل إعادة الأمة إلى موقعها الحضاري.

لقد تجلت مقاصد الشريعة في السيرة النبوية تجليًا عمليًا، ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المبعوث بهذه الشريعة الغراء الخاتمة، والمبلِّغ لأحكامها، والمعرِّف بمقاصدها، ولما كانت مقاصد الشريعة هي المقاصد التي قررها الوحي القرآني، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرآنًا يمشي على الأرض كما وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها، فقد تجلت هذه المقاصد في أيامه الخالدة، وحياته اليومية، وتصرفاته المسددة بالوحي، إذ من خلال النظر في سيرته الغراء ومنهاجه العملي يتضح لنا بجلاء البعد المقاصدي الذي اصطبغت به سيرته الغراء وسائر تصرفاته الشريفة وأحواله المنيفة وأيامه الخالدة..

لقد حافظت سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام على مقاصد الشريعة وسعت إلى تحصيل مصالح العباد في العاجل والآجل؛ ومن ثمة كانت في سائر مراحلها وأحوالها ومشاهدها تهدف إلى حفظ مصالح الناس الضرورية فالحاجية ثم التحسينية، حيث يتم في هذه المستويات الثلاثة

الحفاظ على الأصول الكلية الخمسة الممثلة في: الدين والنفس والعقل والنسل أو العرض والمال.

فمن أجل حفظ الدين سخر النبي ﷺ حياته كلّها لحفظ هذا الدين الذي بعث من أجل تبليغه، حيث اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة المكرمة مركزًا لتلقين الوحي وتصحيح العقيدة وترسيخ مبادئ الدين في النفوس.. كما اتخذ مسجد المدينة المنورة محضنًا للتزكية وتعليم أمور الدين.. كما كانت مشاهده كلّها من أجل إقامة الدين ومن أجل أن يعبد اللهَ تعالى في الأرض.

أما حفظ النفس فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على إحياء النفوس، مشددًا الوعيد لكل من يعتدي على نفوس الآخرين ظلمًا وعدوانًا، حاثًا على كل ما ينفع النفس الإنسانية في الدنيا ويقيها عذاب جهنم في الآخرة..

ولقد أحيا نفوس الخلق ببعثته الغراء، وأخرجها من عبودية الخلق إلى عبودية الخالق، ومن ظلمات الجاهلية إلى أنوار الهداية الإيمانية.. وما تدرجه في الدعوة وغزواته وسراياه وبعوثه إلا من أجل الحفاظ على النفوس وإنقاذها من براثن العبودية لغير الله..

ومن أجل حفظ العقل فقد حرر النبي ﷺ العقول من أوهام الجاهلية وخرافاتها، ونهى عن كل ما يضر بها، ورباها على النظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، وحثها على العلم، وحببها في قراءة الكون البديع لتوحيد الله تعالى، ولتسخير ما بثه الله في هذا الكون من أجل مصلحة الإنسان..

وفي حفظ النسل أو العرض: فقد كان يحث أصحابه وأمته جمعاء على الزواج، ويساعد الشباب عليه، وينهى عن الفواحش والاعتداء على الأعراض، وعن كل مدنسات الشرف، كما كان ينزل العقوبة بكل من يعتدي على العرض أو النسل.

أما عن حفظ المال: فقد قال في خطبته يوم حجة الوداع والبلاغ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»[٢]. «لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ»[٣].. فبحماية هذا المقصد هيأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عناصر التماسك والاستقرار، وهو ما يكفل للناس الأمن الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين.

٢- السيرة النبوية أنموذج لتحصيل مصالح العباد في الدارين:

لم تكن وظيفة الرسل مع أقوامهم إلا تحقيقًا لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، وبناءً لقيم الصلاح، ومكافحةً ودرءًا واجتثاثًا للفساد.. إذ الأصل في المنهاج النبوي العملي: الرحمة بالخَلق، وهدايتهم، والتواصل معهم بالمعروف، والعدل بينهم؛ وإشاعة قيم التعارف والأخوة والسماحة والعفو، والبر والقسط بينهم، وحفظ الأمانة والعهود معهم، والإحسان لهم في القول والفعل...، وغير ذلك مما اشتملت عليه منظومة القيم والأخلاق النبوية التي هي جوهر الرسالة السماوية وروحها. فصاحب الرسالة الغراء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»[٤]، وفي

رواية: «مكارم الأخلاق»(٥).

هـذا، ولمـا كانـت الـشريعة موضـوعةً لأجـل تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وأن حفظ تلك المصالح يتدرج في ثلاث مراتب؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سائر تصرفاته الشريفة ومشاهده الخالدة وأحواله المنيفة كان حريصًا على مراعاة قصدِ الشارع إلى تحصيل تلك المصالح بما يضمن الحفاظ على الكليات الخمس وما يتصل بها أو يلحق بها من مقاصد ومصالح وقيم، فقد بُعث ﷺ ميسرًا، وكان منهاجه منهاج التيسير ورفع الحرج وعدم التكليف بالمشاق، كما أخرج المكلفين عن داعيـة أهـوائهم إلى الالتـزام بأحكـام الـشرع وتوجيهاته وموافقه مقصوده..

وفضلًا عن ذلك فإن السيرة النبوية مدارها على جلب المصالح ودفع المفاسد، وتقديم المصلحة العامة على الخاصة، فقد أعطى النبي ﷺ جزءًا من ثمار المدينة لقبيلة غطفان، مقابل انصرافهم عن حلفهم الذي عقدوه مع الأحزاب، وهذا نوع من تفكيك للأحزاب وتشتيت شملهم، وغطفان كبيرة ومتفرعة، وقد شاركوا يوم الأحزاب بستة آلاف مقاتلٍ..

ومن ثم فإن رسالة سيدنا محمد ﷺ هي رسالة خير ورحمة وحفظ لمصالح الخليقة كلها، فلا يكون منها للناس جميعًا إلا الخير والرحمة، حتى لأولئك المشركين الذين تصدوا للرسالة وأعنتوا صاحبَها، حيث لم يأخذهم اللهُ بما أخذ به الأممَ السابقة الذين تحدّوا رُسلَ الله، وكفروا بهم، وبما يدعونهم إليه...

لقد بعث الله رسول الله الأمين ﷺ بالرحمة على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التي أُرْكِسُواْ فيها، وصاروا بها في عمياء لَا يدركون معها حقًا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كلّ معاني الخير في فطرهم، واشتفت كلّ ينابيع المودة في صدورهم، وكان -ﷺ- رحمةً بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناسَ على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها.

ومن ثم فإن المستقرئ للسيرة النبوية الغراء يتضح له جليًا أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية، وجميع ما اشتملت عليه من عباداتٍ ومعاملاتٍ، وآدابٍ وأخلاقٍ، وحقوقٍ وواجباتٍ كان مبنيًا على أساس حفظ مصالح الخلق في الأولى والآخرة.

٣-النظر النبوي إلى المآلات:

لقد راعى النبي ﷺ ما قد يؤول إليه الأمر في جميع تصرفاته وتصرفات أصحابه... فقد سألت عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- النبيَّ -ﷺ- عَنْ الجَدْرِ أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي البَيْتِ؟ قَالَ: إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ، قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ، لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ»(٦).

فـتركُ النبـي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لإعـادة الكعبـة عـلى قواعـد إبـراهيم كـان مراعـاةً لحـال أهـل مكـة، وقرب عهدهم بالإسلام، فخشي أن يصيبهم بسبب ذلـك نفـور ووحـشة وريبـة تـضرّ بـدينهم، نظـرًا لمـا

تمكّن في قلوبهم من تعظيم بيت الله، وما نشأوا عليه من رؤية البيت على هذا الحال، فمراعاةً لهذا المآل ترك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما كان أكمل.

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرحه على صحيح الإمام مسلم -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «أَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْكَعْبَةِ وَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَصْلَحَةٌ، وَلَكِنْ تُعَارِضُهُ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ وَهِيَ خَوْفُ فِتْنَةِ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا، وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْلِ الْكَعْبَةِ فَيَرَوْنَ تَغْيِيرَهَا عَظِيمًا فَتَرَكَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٧).

وفي مشهد آخر أعرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل المنافقين في أكثر حادثة تستوجب القصاص منهم، وهي حادثة الإفك التي استغلها رأس النفاق ابن أبي سلول للطعن في عرض النبي ﷺ، غير أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرض عن قتله حتى لا يقال: إنه يقتل أصحابه، وحتى لا يؤدي ذلك إلى مفسدةٍ عظيمةٍ وهي إشاعة القتل بين المسلمين لتشكيك أحدهم في دين الآخر واتهامه بالنفاق..

إن المتأمل في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ يتضح له ذلك الارتباط الوثيق بين الأحكام الشرعية التي تبرزها نصوص السيرة الشريفة ومشاهدها الخالدة من جهة، ومصالح الأمة الحيوية التي تمثل مقاصد تلك الأحكام من جهة أخرى، ومن ثم فإن كلَّ ما صدر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدف إلى حفظ مصالح الناس العاجلة والآجلة المتعلقة بحياتهم الفردية والأسرية والجماعية والإنسانية، ودرء المفاسد والمضار عنهم..

٤- الموازنة بين المصالح والمفاسد:

إن الناظر في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ في عهديها المكي والمدني ليقف على نظر مقاصدي دقيق، مبني على فقه الواقع، وفقه الموازنات والأولويات وفقه السنن الإلهية، فقد راعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الدعوة بمكة المكرمة طبيعة الدعوة، وتدرجها، وبيئتها، ومواقف الناس تجاهها، وقد كف عن دفع مفسدة الاضطهاد والتعذيب الذي تعرض له المسلمون في بداية الدعوة، درءًا لمفسدة أعظم منها، وحفاظًا على أنفس المسلمين، واهتم في هذه المرحلة بصناعة جيل البناء والإصلاح، كما راعى في المرحلة المدنية قوة المسلمين، وعدتهم وعددهم، وما تتطلبه المرحلة من إعداد واستعداد، فأذن لهم بمقارعة الشرك ودفع العدوان، تحقيقًا للمصالح العامة للأمة وأمنها الاجتماعي وسلمها الأهلي، حيث توفرت الشروط المعنوية والمادية لدفع هذه المفاسد كلها.

وفي باب الموازنات يكفي أن نذكر من سيرته الغراء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلح الحديبية الذي أسس للسلم والطمأنينة والسلام، مكن المسلمين من بيان قيم الخير والفضيلة والتراحم والمحبة والأخوة في الدين التي جلبت إليها كثيرًا من المتطلعين؛ وهو ما لم يدركه بعض الصحابة أنفسهم إلا بعد حين... فقد حقق بهذا الصلح مصالح كثيرةً للأمة، وحقن به دماء أهل مكة والمسلمين جميعًا.

أما يوم الفتح الأعظم لمكة المكرمة فلم يقتص النبي ﷺ من أولئك الذين آذوه وآذوا أصحابه

وأخرجوهم من ديارهم وأخذوا أموالهم بغير حق؛ وإنما أعلن العفو العام عن أهل مكة حفظًا للأنفس من القتل والسبي، وإبقاءً للأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، وتقديسًا لحرمة البيت العتيق والبلد الحرام، هذا فضلًا عن تحقيق مصالح أخرى كتأليف قلوب أهل مكة على الإسلام بإبراز سماحة الإسلام ومعاني الرحمة للعالمية في الرسالة المحمدية، مما دفع بأهلها الذين كانوا يناصبونه العداء إلى الدخول في دين الإسلام أفواجًا.

٥- نحو نظر مقاصدي في السيرة الغراء:

إن إعادة النظر في السيرة النبوية العطرة وفق رؤية مقاصدية ليس نزهةً معرفيةً، ولا ينبغي أن يكون، وإنما هو عمل علمي ومشروع حضاري عمراني غايته الخروج بالأمة من واقع الفتنة المعبَّر عنه بأسلوب النبوة (ذهاب العلم)، وذلك بإعادة بناء النسق العلمي للخطاب الشرعي، وبيان مراعاة الإمكان البشري المعتبر في قصد المكلف، المانع من تحميل الأمة ما لا طاقة لها به في المنهج النبوي.

ومن ثم فإن النظر المقاصدي في السيرة النبوية هو من أكثر ما تحتاج إليه الأمة المسلمة في الوقت الراهن؛ إذ إن ذلك النظرَ يستنطق المشاهد والأحداث والنصوص السيرية ليكتشف عن مقاصد الرسالة النبوية التي جاءت السيرة تطبيقًا ومنهاجًا عمليًا لها.

ذلك بأن إحياء مقاصد الوحي وقيمه، واستدعاء المعاني الإنسانية النبيلة - التي اجتمعت في سيدنا رسول الله ﷺ الرسول الإنسان الكامل في أخلاقه ودينه، والكامل في نبوته التي استوعبت إرث النبوات السابقة-، والوقوف على الأبعاد المقاصدية في السيرة النبوية التي لم تنل حظها مثل ما نالته الجوانب الأخرى، ضرورةٌ للأمة التي تتوق إلى مجدها الخالد وماضيها التليد وخيريتها وشهودها الحضاري.

والحاصل أن النظر المقاصدي في الاستمداد من السيرة النبوية إنما استدعته مقتضيات تحقيق خلودِ السيرة النبوية والامتداد بهداياتها وسننها، وبسطها على جميع جوانب الحياة الإنسانية والتدليل على رعايتها لمصالح العباد، وتخليص الفهم من النظرة الجزئية النصفية التبعيضية والصورة الآلية المجردة البعيدة عن فقه الواقع، حيث انتهى الأمر إلى قواعد مجردة وقوالب بعيدة عن الارتباط بالغايات الأصلية للمنهاج النبوي، إلى درجة قد تفوت المصلحة، وإعادة توجيهه صوب تحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ومعالجة مشكلاتهم الاجتماعية، وهي الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة وبُعث سيد الخليقة وكانت الرسالة..

ومن ثم فإن النظر المقاصدي في السيرة النبوية هو المدخل الأساس العاصم من الانحراف في الاستمداد منها، والعاصم أيضًا من الوقوع في الخلل والزلل والاضطراب في فهمها والوعي بها وتنزيلها.

لذلك فمن الأهمية بمكان - ونحن نتحدث عن النظر المقاصدي في السيرة النبوية- امتلاك القدرة على الوعي بها، وإدراك مراحلها بدقةٍ، ومقاصدها في كل مرحلة، ومرونتها في التعامل مع الواقع من خلال تلك المقاصد، أمرًا ونهيًا، وحظرًا

وإباحـةً، ورخـصةً وعزيمـةً، بحـسب الظـروف والأحـوال، والاسـتطاعات والإمكانـات المتاحـة، وتـوفر الأسـباب، ومـن ثـم القـدرة عـلى تحقيـق خلودهـا، وذلـك بتجريـدها مـن حـدود الزمـان والمكـان وقيودهمـا، وتوليـد الـرؤى، والأحكـام الـشرعية، والحلـول النبويـة للحـالات، مـع مراعـاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع في ضوء ظروفه وإمكاناته وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته.

ذلك بأن غياب هذا النظر، وعدم فقه مقاصدِ التعامل مع الحالات المتنوعة من الواقع، وأسباب التركيـز عليهـا، والوقـوف عنـد ظـاهر الأحـداث الـسيرية دون النظـر في حكمهـا وعللهـا ومقاماتهـا وسياقاتها ومقاصـدها، أدى إلى اختـلال منهجي في فهمها، كما نتج عنه بروز فرق خارجة، ونتوءات فكرية، لا تتفق مع توازن السيرة النبوية والمنهاج النبوي وشموله ووسطيته واعتداله وقيمه ومعاني الرحمة فيه.. أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهاج كلـه، فاضـطربت الأولويـات، واهتـزت النِّـسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي ، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون(٨).

ومجمل القول: أن النظر المقاصدي في السيرة النبوية هو المنهج الصحيح لفهمها والوعي بها في كـل مراحلهـا؛ في مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة، والـسلمِ والحـرب، والـدعوةِ والتربيـة والبنـاء الإصـلاح، والعلاقـات الإنـسانية والاجتماعيـة والحـضارية والدوليـة، والـسياسةِ الداخليـة والخارجية، وفي سائر وجوه الحياة المتنوعة...

خلاصة القول:

إن الـسيرة النبويـة العطـرة في كـل مناحيهـا انطلقت من اعتبارات مقاصدية وسعت إلى تحقيقها والحفاظ عليها، سواء ما كان منها استجابةً للوحي المنزّل من لدن رب العالمين، أو ما كان اجتهادًا منه ﷺ، مسددًا بالوحي، والمتأمل في المنهاج النبوي في تعامله مع استطاعة المكلف وفقهه لحالته وتقرير الأحكـام الـشرعية يـدرك أن المـنهج النبـوي مـنهج مقاصـدي، والنظر المحمـدي نظر مقاصـدي، قـائم على جلب المصالح ودرء المفاسد ومراعاة المآلات، وحفظ الكليات الشرعية والمقاصد النبيلة..

* * *

الهوامش:

(١) الاجتهاد المقاصدي، نور الدين الخادمي، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، عدد: ٦٥-٦٦، قطر، ط١: ١٩٩٨م، ١/٣٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، ح٣٧.

(٣) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، ح٣٠٨٧.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ١٤/٥١٣..

(٥) مسند البزار، ١٥/٣٦٤.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا، ح١٥٠٧.

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم، ٩/٨٩..

(٨) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز بن مبارك، سلسلة كتاب الأمة الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد ٤٣، رمضان ١٤١٥هـ، من تقديم: عمر عبيد حسنة، ص١٠-١١ بتصرف.

* * *

القرآن معجزة الإسلام الخالدة

بقلم: **الأستاذ: محمد فريد وجدي**

كانت الكتب السماوية قبل نزول القرآن المجيد تكاد تكون وقفًا على رجال الدين، وكانت الأمية ضاربة أطنابها بين الشعوب فلا يقرؤها منهم إلا العدد القليل؛ وكان لرجال الدين سلطان مطلق على العقول إذا طالبهم أحد من الناس بدليل، اتهموه بالزندقة وقذفوا به إلى مكان سحيق، أو ألقوه في سواء السعير. فكان الاستئثار منهم بالكتب المقدسة، والعزلة التي اختاروها لأنفسهم، مسوغين لهم أن يتلاعبوا بتلك الكتب زيادةً ونقصًا، وتأويلًا وشرحًا، دون أن يشعر بهم أحد. فلما أرسل الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدين الحق، اقتضت حكمته أن يضمن كتابه جميع ما آتاه الأمم السابقة من العلم والحكمة، وأن يضيف إليهما ما تستدعيه حاجة العالم منهما إلى يوم القيامة.

وليس هذا فحسب، فإن هذا الدستور الإلهي الكريم قد اشتمل من شؤون المرء وما أنزله عليهم من الوحي، وما لقوه من أقوامهم من العنت والحرص على تقليد السالفين، وما اختلفوا فيه من بعد وفاة رسلهم من الأصول، وما استحدثوه من الضلالات وجمدوا عليها، وما استهتروا فيه من الرذائل الخلقية وأمعنوا فيها – ما يجعل القرآن بحق كتابًا للعالمين كافةً، لا للعرب خاصةً، وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. فهو سبحانه يخاطب العالمين كافةً لا العرب وحدهم؛ وقد جاءت آيات أخرى تؤيد هذا الفهم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقد جرى على ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث يكتب منه إلى الملوك وقادة الأمم المعروفين على عهده يدعوهم إلى الإسلام، ويحذرهم من رفض دعوته؛ وصدقت الحوادث هذا الأمر عمليًا بدخول الأمم تترى فيه، فلم ينته القرن الأول حتى بلغ عدد المسلمين نحو مئة مليون نسمة، وهو مالم يحدث له نظير لأي دين

من الأديان، ووصل عددهم اليوم إلى أكثر من أربع مئة مليون مبثوثين في الأرض قاطبةً، ولا يزالون ينمون نموًا ملحوظًا إلى عهدنا هذا.

وفوق هذا فقد شعر العلماء الاجتماعيون، والمعنيون بدراسة تطورات الشعوب، أن هذا الدين سيعم العالم كله، لما اشتمل عليه من الأصول التي لا مقوم لأود الإنسانية سواها، ولا آسى لأدوائها العضالة غيرها، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. طوعًا: أي: بحكم العقل، وسلطان الأدلة؛ وكرهًا: أي: تحت ضغط الحوادث، وتطلب المخرج من الكوارث؛ لذلك قال الفيلسوف العالمي (برنارد شو): لا مخرج للإنسانية مما تورطت فيه من المهلكات إلا بالإسلام. وقد تنبأ من تطور الحوادث أن الأمة الإنجليزية قد لايمر عليها قرن حتى تسلم، وأن أوروبا كلها قد لايمر عليها قرنان حتى تلحق بانجلترا في قبول الإسلام دينًا لها.

كل هذا من بركات هذا الكتاب الكريم، ألا وهو القرآن، فهو يخاطب العقل، ويناجي القلب، ويمازج العاطفة الرفيعة، ويوفق بين مطالب كل هذه الخصائص الإنسانية، ويؤلف منها حالةً نفسيةً تجعل من صاحبها رجلًا رجله في الثرى، وهامته في السماء، عقله يشتغل بمصالحه ومصالح الإنسانية، وقلبه يسبح في فلك الحقائق العلوية، وعاطفته تسع الأرض ومن عليها، حنوًا ونفعًا وإيثارًا وتضحيةً. كل هذا تحت مدد من القرآن العظيم، يتولاه بالروح المعنوية، والقوى النفسية، والاستقامة الخلقية، وتحري الحق، وتوخي الاعتدال، وتعقب الغايات الشريفة، والمثل العليا.

هذا المدد الإلهي الذي حمله القرآن الكريم في آياته، جعل من الجماعة القليلة العدد التي آمنت بخاتم المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمةً عالميةً نشرت سلطانها على بقاع من الأرض لم تصل إلى مثلها أمة في الأرض إلى اليوم.

فهذا الكتاب الإلهي جدير بأن يكون وردًا يوميًا لكل مسلم، فإن مراميه لاتنحصر في إقامة الدين فحسب، ولكن في عمارة الدنيا أيضًا؛ فقد عمل به قوم لم يكن لديهم من مقومات الدين والدنيا شيء يعتد به، فأمدهم بروح منه أصبحوا تحت تأثيره في سنوات معدودة خلفاء الله في الأرض، على سنن قاوم جميع ما اصطدموا به من مماحكات قادة الأديان، وشبهات الملحدين، قدامى ومحدثين، وألزمهم الحجج القاطعة فارتدوا عنهم مخذولين،

وتابع الإسلام طريقه يزيل رين القلوب، ويجلو صدأ العقول، حتى دانت له الأرض، فأصبح لأهله الخلافة فيها، كما وعدهم الله بذلك وهم في أشد ما يكون عليه المؤمنون، بين كثرة ساحقة من الكافرين. جاء في الأثر أن المسلمين كانوا، وهم قلة لا يعتد بهم، يقيمون شعائر دينهم وهم وجلون، يخشون أن يطلع عليهم أعداؤهم، فيصبوا عليهم العذاب الأليم؛ فكانوا يتساءلون: هل يأتي علينا زمان نعبد الله فيه آمنين على أنفسنا، لايحد من حريتنا جاهل أثيم؟ فأنزل الله عليهم قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. وقد حقق الله لهم وعده، فأمدهم بروح الصبر، وأيدهم بنور الهدى؛ فرأوا بأعينهم علمهم يرفرف على عواصم للرومانيين والفارسيين، كانوا لايكادون يدخلونها سائحين إلا خائفين! فأين هذا مما كانوا فيه؟ وأي شيء جعلهم يتغلبون على دولتي الرومانيين والفارسيين وقد كانتا من السطوة وقوة البأس بحيث لا تجرؤ أكبر مملكة في الأرض أن تصارحهم العداء، فضلًا عن أن تقاتلهم وتنتصر عليهم؛ وتقتطع أقطارًا من إمبراطوريتهما العظيمتين لتضيفها إلى ملكها؟ أليس هذا كله تأثير تعاليم الإسلام الماثلة في القرآن الكريم؟

لما كان الكفار يطلبون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتيهم بآية، كان يقول لهم: آيتي هذا القرآن. فما كان أصدقه، وأبلغ حجته حين كان يجيبهم بهذا الجواب؟ أليس الكتاب الذي يوجد أمةً من العدم، ويمدها بتعاليم تبلغ بها شأو الأمم في سنين معدودة، ويحملها على الدؤوب والاستمرار في الترقي حتى تسبق في مجالي العلم والعمل جميع أمم الأرض التي مضى على قيامها ألوف من السنين، وتقيم لدولتها إمبراطورية لم تصل إلى مثل اتساع رقعتها أمة من الأمم إلى هذا العهد – جديرًا بأن يعتبر أكبر الآيات الإلهية على الإطلاق؟

لا جرم أنه أكبر آية؛ زد على ذلك أنه آية خالدة لايمكن الشك فيها. فقد كذب الملحدون بالآيات التي أرسل بها الرسل السابقون واعتبروها من مختلقات أتباعهم؛ ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا هذه الآية؛ لأنها ثابتة ثبوت الحوادث المقررة، وآثارها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا؟

* * *

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ١٢٣)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

٢- الشيخ رفيع الدين:

ولد عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م. وهو من مشاهير خلفاء الشاه عبد الغني المجددي. وإن كانت بضاعته في العلم قليلةً، لكن له ملكة كبيرة في الشؤون الإدارية. وكان يحمل في ذلك غرائب الصفات. وكان يعد من كاملي الصالحين في زمانه. ولي إدارة دارالعلوم مرتين. الأولى: عام ١٢٨٤هـ /١٨٦٧م وعام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م عند رحيل الحاج عابد إلى الحج، والثانية: بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات حيث عيّن رئيسًا ثابتًا عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. واستمرّ على هذا المنصب إلى أوائل عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م. وشهدت دارالعلوم/ديوبند في عهده رقيًا وازدهارًا كبيرين. ويرجع ذلك لحد كبير إلى حسن إدارته. واشتهر أنه قلما يجتمع إلى الديانة والأمانة الملكة الإدارية، ولكن كان يجمع بينهما على أتم الوجوه. واستمر في الإدارة نحو(١٩) عامًا.

ومعظم الأبنية الأولية في دارالعلوم أقيمت على عهد إدارته لها. ولك أن تدرك مذاقه في البناء والتعمير من خلال أبنية ذلك العصر، خاصةً إتقان بناء مبنى «نودره»، وغيره، وحسنه و نسقه. واشتهر أنهم لما بدؤوا إقامة مبنى «نودره» وهو أول هذه الأبنية عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م رأى الشيخ رفيع الدين في المنام أن النبي ﷺ بدوره حضر هذا المبنى المقترَح، وهو يقول له: «هذه المنطقة ضيقة جدًا». ثم خطط بعصاه المبنى ودائرته ثم قال: ابنوا حسب هذه الخطوط». فلما استيقظ الشيخ في الصباح توجه إلى المكان، فإذا الخطوط قائمة، فبدؤوا يحفرون الأساس على ذلك وشرعوا في البناء.

وكان للشيخ رفيع الدين رحمه الله خلافة من المفتي عزيز الرحمن – المتوفى عام ١٣٤٧هـ /١٩٢٨م-، وغادر إلى المدينة المنورة عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م وهو ينوي الهجرة إليها، وقضى بها عامين، وتوفي ودفن في جنة البقيع.

٣- الحاج السيد فضل حق الديوبندي رحمه الله:

من عائلة الأشراف الرضوية، بايع العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، واختير عضوًا في

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

المجلـس الاستـشاري لـدارالعلوم/ديوبنـد مـن القديم. وعمل مسؤولًا عن شؤون المكتب الإداري إبان إدارة الحاج محمد عابد رحمه الله لدارالعلوم مدةً طويلةً. ثم عيِّن رئيسًا لها عقب استقالة الحاج محمد عابد عام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، واستمر على الإدارة نحو سنة واحدة ثم استقال منها.

وأعد الحاج فضل ترجمة للعلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، لم تشهد النور بعدُ، اقتبس منها الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في «سوانح قاسمي» باسم «سوانح مخطوط» في غير موضع، مما يدل على أنه ترجمة مفصلة شاملة جدًا. وكان يتمتع بجانب الكفاءات الكتابية بالقدرة الإدارية على أتم الوجوه. وكـان موظفًـا في محكمـة التعلـيم الحكوميـة في سهارنفور مدةً من الزمان قبل أن يصل حبله بحبال دارالعلوم/ديوبند.

٤- الشيخ محمد منير النانوتوي رحمه الله:

الشقيق الأصغر للعالم والمؤلف الشهير الشيخ محمد أحسن النانوتوي والشيخ محمد مظهر رحمهما الله، ولد في «نانوته» عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، وتلقى مبادئ العلم على والده الحافظ لطف علي. ثم التحق بكلية دهلي، فتلقى العلم بها على كل من الشيخ مملوك علي النانوتوي، والمفتي صدر الدين آزرده، والشاه عبد الغني الدهلوي. وكان الشيخ محمد منير أحد الناشطين والمناضلين في حرب التحرير عام ١٨٥٧م. وساهم في حـرب «شـاملي» عـلى قـدم المـساواة مـع المـشايخ الآخرين. واستمات فيها، ثم اختفى بعد حرب شاملي عـن الأنظـار، وبعـد أن صـدر العفـو العـام وصـل إلى شـقيقه الأكـبر الـشيخ محمـد أحـسن في «رائـبريلي»، وتوظـف عـام ١٨٦١م/١٢٧٨هـ في كليـة بـريلي. واستمر على ذلك حتى تقاعد من الوظيفة. وعمل نـاظرًا لمطبعة الصديقي في بريلي لشقيقه الأكبر محمد أحسن إبان نزوله في «بريلي». وكان الشيخ منير بايع في السلـسلة النقـشبندية، وقـام بنقـل كتـاب «منهـاج العابـدين» لـصاحبه الإمـام الغـزالي رحمـه الله إلى اللغـة الأردية سماه «سراج السالكين»، قـام بطبعـه مطبعـة الصديقي/بريلي عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م. ولـه كتاب آخر «فوائد غريبة» يحتوي على مسائل التصوف.

كـان الـشيخ منـير لـه قـدم راسـخة في الديانـة والأمانـة. وجـاء في «أرواح ثلاثـة» قـصة لـه تقـول: توجـه الـشيخ إلى دهـلي لطباعـة التقـارير الدوريـة لـدارالعلوم /ديوبنـد، وحمـل معـه ثـلاث مئـة روبيـة، وصـادف أن سرق المـال فيهـا، ولم يُطلـع الـشيخ منـير أحـدًا عـلى الـسرقة، وعـاد إلى وطنـه «نانوتـه»، وبـاع أرضـه حتـى حـصل لـه المـال، وأنفقـه عـلى طباعـة التقارير الدروية وجاء بها إلى دارالعلوم. وبلغَ أعضاء المجلـس الاستـشاري ذلـك، فرجعـوا في ذلـك إلى الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله يسألونه عن حكـم الـشرع في الأمـر، فـرد الـشيخ رشـيد أحمـد بـأن «مدير المدرسة أمين، وضاع المال من غير تعدٍّ منه، فـلا غرامـة عليـه». فعـرض أعـضاء المجلـس

الاستشاري هذه الفتوى على الشيخ منير، وطلبوا منه أن يسترد ما أنفقه على طباعة التقارير. فقال الشيخ منير: «لا أتحدث عن الفتوى، هبْ أن الشيخ رشيد أحمد تعرض لما تعرضت له هل كان يسترد ماله؟ فلم يقبل المال رغم إصرار الأعضاء عليه[1].

٥- الحافظ محمد أحمد رحمه الله:

هو نجل العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله. ولد في «نانوته»، وحفظ القرآن الكريم، ثم تلقى مبادئ العلم على والده، ثم أرسله والده إلى «كلاؤتهي» في «بلند شهر»، وكان العلامة النانوتوي أقام مدرسةً في «كلاؤتهي» سماها «منبع العلوم»، وكان يدرس بها الشيخ عبد الله الأنبيثوي. ثم أرسلوه للاستزادة من العلم إلى مدرسة شاهي /مراد آباد، وكان يدرس بها الشيخ أحمد حسن الأمرهوي-تلميذ العلامة النانوتوي رحمه الله-، فتلقى عليه كتب مختلف العلوم والفنون، ثم عاد إلى ديوبند، وتتلمذ على شيخ الهند، وقرأ بعض الدروس في سنن الترمذي على الشيخ محمد يعقوب، ثم أكمل دورة الحديث الشريف في حلقة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، كما قرأ فيها الجلالين وتفسير البيضاوي أيضًا.

نصبَ في عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م مدرسًا في دارالعلوم/ديوبند، وولي تدريس كتب مختلف العلوم والفنون. واستقال الحاج محمد عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، وتلاه اثنان من الرؤساء واحدًا بعد واحد- الحاج فضل حق الديوبندي، والشيخ محمد منير النانوتوي-، ولم يمكث أحد منهما في الرئاسة إلا سنةً واحدةً، وتسرب الخلل إلى إدارة دارالعلوم لما شهدته من التبديل في الرئاسة كل عام، فاختار الشيخ الكنكوهي رحمه الله عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م الحافظ محمد أحمد لرئاسة دارالعلوم/ ديوبند، وكان يتمتع بقدرة الإدارة والنفوذ والجاه، فسرعان ما تغلب على إدارة دارالعلوم، و تحققت الآمال التي عقدوها به عند تعيينه رئيسًا للمدرسة على أتم الوجوه. وكان شيخ الهند رحمه الله - وكان يشغل منصب رئيس هيئة التدريس، وشيخًا للحافظ أحمد - يوليه أهميةً قصوى بصفته نجلًا لشيخه.

وشهدت دارالعلوم/ديوبند رقيًا غير عادي إبان إدارة الحافظ أحمد لها. وحين ولي زمام الإدارة فيها كان معدل موارد المدرسة بين خمس آلاف وستة آلاف روبية، وارتقى هذا المعدل في عهده إلى (٩٠)ألف روبية. وكان معدل عدد الطلاب بين مئتين إلى مئتين وخمسين طالبًا، فارتفع عددهم إلى تسع مئة طالب. وكانت المكتبة تحتضن خمسة آلاف روبية، وأما في عهده فقد ارتفع عدد الكتب والمصادر إلى أربعين ألف كتاب. وكانت قيمة أبنية دارالعلوم حتى عام ١٣١٣هـ/١٨٩٥م (٣٦) ألف روبية، وارتقت هذه القيمة في عهده إلى أربع مئة ألف روبية.

والحاصل أن دارالعلوم شهدت رقيًا عظيمًا صورةً ومعنًى، لم تشهده من قبل. ولم يكن قبل عهد إدارته لشعب دارالعلوم ومكاتبها نظام نظيف

ومنسق. ورغم أن دارالعلوم تحول معنى إلى دارالعلوم إلا أنها تحولت إليها في عهده بالنظر إلى الأبنية وصورتها الظاهرة، وتم تشكيل الشعب والمكاتب الإدارية. وشهد نطاق نفوذها زيادةً غير عادية. فالحاصل أن دارالعلوم اتجهت إلى الرقي والازدهار على كل المستويات. ويشكل عهد إدارته لها في تاريخها عهدًا ذهبيًا ولامعًا للرقي و الازدهار.

وأقيم في عهده مبنى دارالحديث الذي يعتبر أول بناء من نوعه في طول الهند وعرضها. وبدء إنشاء السكن الجديد والمسجد والمكتبة من ذكريات عهد الحافظ أحمد رحمه الله. ولازالت ذكريات الحفلة العظيمة لإناطة العمائم التي أقيمت عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م حيةً ماثلةً في قلوب الناس. وقد أنيط فيها العمائم برؤوس أكثر من ألف خريج.

ولكي تواصل دارالعلوم رقيها وازدهارها قام الحافظ أحمد برحلاتٍ إلى مختلف مدن البلاد، وهيأ تبرعاتٍ ثابتةً لدار العلوم، وخاصةً رحلات إمارة «بوبال»، وإمارة «بهاولفور» و«حيدر آباد» لاتزال محفورةً في جبين تاريخ دارالعلوم/ديوبند. وكان من المقرر تزويد دارالعلوم/ديوبند بمئة روبية كل عام، فسافر الحافظ أحمد إليها، فتقررت مئتان وخمسون روبيةً كل عام بنفوذه وتأثيره. وفي الرحلة التالية تقررت خمس مئة روبية، وفي الرحلة الثالثة تقرر ألف روبية، واستمرت إلى أن سقطت إمارة حيدر آباد.

ولقَّبته الحكومة البريطانية بـ«شمس العلماء» ولكنه أبى أن يقبل لقبًا من الحكومة نظرًا إلى مذهب دارالعلوم الحر، فرد اللقب إليها. ومن خصائص عهد إدارته أيضًا أن زار حاكم الولايات المتحدة دارالعلوم مرتين في عهده. وكان يمر بالمكان المقترح لبناء دارالحديث جدولٌ يسيل فيه المياه القذرة، وكان يحول دون إقامة الأبنية فيها، وكان القرب من الجدول القذر ينعكس سلبًا على جو دارالعلوم ومياهها، وواصل القائمون على دارالعلوم جهودهم ومساعيهم لتحويل الجدول عنها، وكانت الإدارة المحلية تأبى ذلك، فاستضاف الحافظ أحمد رحمه الله الحاكمَ الإنجليزي، وتوصل إلى حل لهذه المشكلة. فتم تحويل الجدول القذر بأمر من حكومة الولاية على نفقات الحكومة. وأعظم ما كان يمتاز به الحافظ أحمد أنه يحل أصعب المشاكل بأيسر وجه.

وكان ينظر في أصغر الشؤون الطلابية، وينكر، ويزجرهم عليها في جانب، كان كثير العطف والرحمة بالطلاب في جانب آخر. وكان ينظر إلى أبسط حاجات الطلاب بعينٍ تربويةٍ. ويعتني بعلاج من مرض منهم. وكانت مهابة الحافظ أحمد على الطلاب والأساتذة مضرب المثل. وكانت مائدته واسعةً جدًا، وينفق على ضيوف دارالعلوم بصدرٍ رحبٍ على حسابه الخاص.

واشتغل بالتدريس والإفادة من القديم، فلم يتخلف عنه في عهد إدارته. فكان يدرس مشكاة المصابيح والجلالين، وصحيح مسلم، وسنن

ابن ماجه، ومختصر المعاني ورسالة مير زاهد، وغيرها من الكتب الدراسية بنهم وشوق، وأماليه في الدروس على منتهى الوضوح والتسلسل، والاتزان. وكان له كل التمكن من علوم والده وفنونه.

ونصب «نظام دكن» الحافظ رحمه الله في منصب المفتي الأعظم في إمارة حيدر آباد، واستمر على أعلى منصب ديني في الحكومة الآصفية اعتبارًا من عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م إلى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م. ووجَّه أيام نزوله في حيدر آباد إلى نظام حيدر آباد دعوةً لزيارة دارالعلوم/ ديوبند، فاستجاب لها، وقرروا أن «نظام حيدر آباد» سيقوم بزيارة دارالعلوم عند توجهه إلى «دهلي»، وكان من المرجو أن يسافر نظام حيدر آباد إلى دهلي عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، فسافر الحافظ أحمد إلى حيدر آباد للتذكير بالوعد، وكان مريضًا حين قصد الرحلة إلى حيدر آباد، وكان أنهكه كبر السن والمرض المتواصل كثيرًا، ولكن لم يبال بصحته لصالح دارالعلوم، وشد الرحال إلى حيدر آباد، واشتد مرضه بعد أن وصل إليها، وانتظروا أن يعود إليه الصحة فيجتمع بنظام حيدر آباد، ولكن المرض لم يزدد إلا شدةً مع مرور الأيام، فتوصل أصحابه ومتوسلوه إلى أن يعود الحافظ أحمد إلى ديوبند، فغادر حيدر آباد وهو يريد العودة إلى ديوبند، ولم يتجاوز القطار حدود حيدر آباد إذ لفظ الحافظ أحمد نفسه الأخير في محطة نظام آباد. وصدق عليه ما ورد «من مات في السفر فهو شهيد»، وكان ذلك في ٣/ جمادى الأولى عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م. وكان على لسانه ذكر الله تعالى قبل موته حتى عقد بنانه على عدد (٢٩)، فطارت روحه وهو يقول: الله.

وأنزلوا جنازته على محطة نظام آباد، وأعدوه للدفن، وأخبروا نظام حيدر آباد بالبرقية، فأمر نظام حيدر آباد بنقل جنازة الحافظ أحمد إلى حيدر آباد، وصلوا عليه مرات في نظام آباد وحيدر آباد، ووري جثمانه في اليوم التالي ٤/ جمادى الأولى على نفقات الحكومة في مقبرةٍ خاصةٍ تسمى «خطة الصالحين». و قال نظام دكن في كلمة عزائه وهو يبدي غاية أسفه: «يا للأسف، جاء ليحملني فلم يلبث أن لزم هذه الأرض».

ونظرًا إلى ما قام به الحافظ أحمد من على منصة دارالعلوم للمسلمين من خدمات غالية ، اعتبروا موته خسارةً لاتعوض لدارالعلوم والمسلمين. وعقدت حفلات التأبين في طول البلاد و عرضها وأهدوا الثواب إلى روحه بغض النظر عن الأوساط الديوبندية وغيرها.

وقام الحافظ أحمد بخدمة دارالعلوم (٤٥)سنة، وقضى عشر سنوات أولى في التدريس والإفادة، ثم قضى (٣٥) عامًا في مسؤوليات الإدارة.

==========

(١) أرواح ثلاثة، الحكاية رقم:٤٥٣، للشيخ محمد أحسن النانوتوي، ص ١٥٧-١٦٠.

نسبة الإرجاء وقلة الحديث إلى الإمام أبي حنيفة

وذمُّ الغلو في التقليد وإطالةِ اللسان على المجتهدين

بقلم: **الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي**
المعروف بـ«حكيم الأمة» (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)
تعريب: **الأستاذ أبو عبد الله أشرف عباس القاسمي**(*)

الشبهة التاسعة عشرة:

ولو سلمنا أن التقليد واجبٌ فيجب أن لا يكون التقليد إلا للمجتهد وأما الإمام أبو حنيفة فهو لم يكن مجتهدًا؛ لأن من شروط المجتهد أن يكون عارفًا بالأحاديث الكثيرة، ولم يبلغه من الأحاديث إلا سبعة عشر حديثًا، كما قال بعض المؤرخين، وكذلك ضعّفه البعض في رواية الحديث، فإذن لاثقة بمسائله ولا بروايته؟

الجواب:

المؤرخ - ابن خلدون - الذي حكى عن الإمام أبي حنيفة أنه لم يبلغه من الأحاديث إلا سبعة عشر حديثًا - كتب هو بنفسه في شأن الإمام قائلًا: «ويدل على أنه كان من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتمادُ مذهبه بينهم، والتعويل عليه، واعتماده ردًّا وقبولًا»(١).

فلما وجب كون المجتهد محدثًا - كما قال المعترض، والواقع أيضًا يؤيد قوله - وثبت كون الإمام مجتهدًا بقول المؤرخ، فلاجرم أن يثبت كونه محدثًا كما هو الظاهر؛ لأن وجود الملزوم يستلزم وجود اللازم. أما ما كتبه المؤرخ من القول الذي يخالف تحقيقه المذكور، فإما أنه أخطأ هو بنفسه أو الناسخ أو حكى عن قول غيره، ثم بين ضعفه بصيغة «يقال» عنه، (أو لم يثبت عند ابن خلدون ذلك الرأي الذي يقضي بأن الإمام أبا حنيفة بلغت روايته من الأحاديث سبعة عشر حديثًا فقط؛ لذلك بدأه بكلمة «يقال» وهي صيغة من صيغ التمريض تفيد الشك). هذا إلى أن هذا القول يأباه العقل والنقل، فيكون باطلًا أصلًا إن لم يؤوّل. ولما لم يكن المؤرخ في عِداد رجال العلوم الشرعية والماهرين فيها - كما صرح به الحافظ شمس الدين السخاوي في ترجمته في الضوء اللامع(٢)، فلاعجب إذا صدر عنه مثل هذا القول الباطل فيما يخص العلوم الشرعية.

(*) أستاذ بالجامعة.

أما كون هذا القول مخالفًا للنقل؛ فإنه إذا ذهب أحد ليقرأ الموطأ وكتاب الحجج وكتاب الآثار والسير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني وكتاب الخراج للإمام أبي يوسف ومصنف ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق وكتب الدار قطني والبيهقي والطحاوي، واستخرج منها جميع المرويات من طرق مرضية لأبي حنيفة، وأحصاها، اتضح له كذب هذا القول وضوحَ الشمس في رابعة النهار.

وأما كونه مخالفًا للعقل فإن الإمام أبا حنيفة من أتباع التابعين فيما ذهب إليه بعض المحدثين كالحافظ ابن حجر العسقلاني في قول منه، أو من التابعين فيما ذهب إليه الخطيب البغدادي والدار قطني وابن الجوزي والنووي والذهبي وولي الدين العراقي وابن حجر المكي والسيوطي والعسقلاني في قول منه وغيرهم من المحدثين، فالذي يقرب عهده من عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القربَ، وعاش عصرًا كان العلم فيه شائعًا، والدين منتشرًا، كيف يجوّز العقل أنه لم يبلغه إلا سبعة عشر حديثًا؟ وقد صرح المؤرخ بنفسه في مفتح تاريخه أن الأمور التاريخية لابد أن تُوزن بميزان العقول، فإذا لم تستسغه البراهين العقلية، رُفِضَتْ عند أرباب العقول. فاندفعت الشبهة عن كون الإمام غير مجتهد بحذافيرها.

وأمّا ما ورد عن ضعفه في روايات الحديث؛ فذكر الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»: أنّ يحيى بن معين قال فيه: «لا بأس به لم يكن متّهمًا». انتهى. ومثل هذا الكلام إذا جاء من مثل ابن معين رئيس النقّاد، يقوم مقامَ كلمة التوثيق، كما صرّح به الحافظ ابن حجر وغيره.

وذكر ابنُ عبد البر عن عليِّ بن المَديني: أبوحنيفة روى عنه الثوريّ وابن المبارك، وحماد بن زيد، وهشام، ووكيع، وعباد بن العوام، وجعفر بن عون، وهو ثقة لا بأس به، وكان شعبة حسن الرأي فيه، وقال يحيى بن معين: أصحابنا يفرطون في أبي حنيفةَ وأصحابِهِ، فقيل له: أكان يكذب؟ قال: لا.

فتصريح هؤلاء الكبار من المحدثين النقاد، لايترك سبيلًا حتى للشك في ضعفه. - وهذا كله ملتقط من مقدمة عمدة الرعاية للشيخ مولانا عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى-.

الشبهة العشرون:

عُد أصحاب الإمام أبي حنيفة في كتاب «الغنية» للشيخ عبد القادر الجيلاني من المرجئة، فثبت أن فرقة الأحناف من الفرق الضالة الباطلة؟

الجواب:

«غنية الطالبين» غير متوفر عندي، فما تمكنت من مراجعته والرد عليه. ولكن أسوق فيما يلي ما حكاه الإيجي في شرح المواقف في بيان عدد الفرق الضالة، وسيكفي هذا ردًّا على السؤال. يقول الإمام الإيجي في المواقف بعد ما عدّ الغسانية - أصحاب

غسان الكوفي - من فرق المرجئة: «وغسان كان يحكيه أي: القول بما ذهب إليه عن أبي حنيفة ويعده من المرجئة، وهو افتراء عليه، قصد به غسان ترويجَ مذهبه بموافقة رجل كبير مشهور». قال الآمدي: «ومع هذا فأصحاب المقالات قد عدوا أبا حنيفة وأصحابه من مرجئة أهل السنة، ولعل ذلك؛ لأن المعتزلة في الصدر الأول كانوا يلقبون من يخالفهم في القدر مرجئًا» أو؛ لأنه لما قال: «الإيمان هو التصديق ولا يزيد ولا ينقص» ظن به الإرجاء بتأخير العمل عن الإيمان، وليس هذا من الواقع في شيء؛ لأنه عُرف منه مبالغته في الأعمال الصالحة والاجتهاد فيها».

عُلم من هذا أجوبة عدة:

الأول: هذا افتراء من غسان على أبي حنيفة لما رمى به إلى الغرض الفاسد.

الثاني: أن المعتزلة لقبوا من خالفهم من أهل السنة مرجئًا، فأطلقوا على أبي حنيفة كذلك.

الثالث: نشأت هذه الشبهة الخاطئة بما قاله الإمام أبو حنيفة في تفسير الإيمان بـ«إنه هو التصديق». فما في «الغنية» إما مؤول أو زلة في النقل؛ فإن عقائد المرجئة معروفة باطلة، وكذلك كتب الحنفية تشهد ببطلان مذهب المرجئة، وأما الحنفية وإمامهم فهم ليسوا منهم.

الشبهة الحادية والعشرون:

من الإثم أو الشرك أن ينسب الحنفي نفسه إلى الإمام أبي حنيفة ويسمى حنفيًّا، بدل أن ينسب الحنفي نفسَه إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويُسمى محمديًّا.

الجواب:

أولًا يجب الاطلاع على معنى هذه النسبة، ليظهر حكمه، فاعلم أن «الحنفي» يُراد به من يسلك ويتبع مذهب الإمام أبي حنيفة، ولما كان هذا الانتماء إلى غير النبي، فيجب أن ننظر: هل هذا يجوز بوجه من الوجوه الشرعية أم لا؟ ففي حديث عرباض بن سارية عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ»[٣].

نسب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الطريقةَ المسلوكة في الدين إلى الخلفاء الراشدين، فدل ذلك على أن إضافة طريقة الدين إلى غير النبي لملابسةٍ ما جائزة، فلو نسب أحدٌ مذهبه - الذي هو طريق من طرق الدين- إلى الإمام أبي حنيفة بمعنى أنه عالم وشارح له، فأنى يلزم منه الإثم أو الشرك؟ نعم لو اعتقد بالانتماء إليه أنه هو الحاكم والآمر- العياذبالله - فلا شك أنه شرك؛ بل لايجوز كذلك إذا نسب أحد مذهبه إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذ المعنى. قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾[٤] ولما كان الأمر كذلك فهيهات أن ينسب مسلم من المسلمين مذهبه إلى غير النبي أو إلى غيره تعالى.

أما قول القائل: بأنه كان أحرى أن ينسب إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكان نسبته إلى أبي حنيفة، فهو خطأ محض؛ فإن المسلم لايحتاج لمثل هذه النسبة المحمدية إلا إذا أراد تمييز نفسه من المسيحي أو اليهودي، وسمى نفسه محمديًّا، وأما إذا أراد طريقًا من طرق المحمديين، فيسمى نفسه حَنَفيًّا أو شافعيًّا؛ فإذا أطلق هنالك أيضا كلمة «المحمدي»، كان من قبيل تحصيل الحاصل، فثبت أن لكل مقالٍ مقامًا. وليس هناك أحد يفضل الحنفي دون المحمدي.

الشبهة الثانية والعشرون:

إنكم تأخذون في بعض المسائل بأقوال الصاحبين – أبي يوسف ومحمد بن الحسن – وفي بعض الأحيان تُفتون بأقوال الأئمة الآخرين، فكيف يبقى التقليد الشخصي؟

الجواب:

صاحبا الإمام أبي حنيفة لايقلدان في الأصول إلا إياه، وإنما الاختلاف في استنباط بعض الجزئيات، وهذه الجزئيات أيضا مستخرَجة من تلك الأصول نفسها. فالأخذ بأقوال الصاحبين في بعض المسائل لايلزم منه ترك التقليد كما تقرر في قواعد رسم المفتي؛ فإن المقصود بالنظر في الأخذ من الأشخاص هي الأصول، وأما الأخذ ببعض أقوال الأئمة الآخرين فهذا لايتحقق إلا إذا كانت هناك ضرورة شديدة تدعو ذلك، وقد تقرر في الشرع أن الضرورة توجب التخفيف. وأما المفاسد المذكورة التي يجرّ إليها ترك التقليد الشخصي، فهي أيضا لاتوجد في ذلك. وليس المقصود من التقليد إلا سدّ هذه المفاسد، وهو موجود، فالتقليد الشخصي يبقى جائزًا.

الشبهة الثالثة والعشرون:

إن الأقوال التي يعمل بها المقلدون، لايتصل سندها إلى صاحب المذهب، فكيف يصح تقليدهم؟

الجواب:

لا حاجة للسند فيما تواتر من الأخبار، وإنما المصير إليه في أخبار الآحاد، ولأجل ذلك لم يعتبروا سند القرآن كواجب، ونسبة هذه الأقوال إلى صاحب المذهب متواترة، فإن هناك عددًا لايُحصى من الناس – ظلوا يتناقلون هذه الأقوال منذ صدورها منهم، ولا يضرنا إذا لم نبين أسماءهم وصفاتهم؛ فإن النسبة متيقنة، أو مظنونة في بعضها، ويكفي بهما للعمل.

الشبهة الرابعة والعشرون:

تتعارض الروايات الفقهية في بعض المسائل، وتسكت عن الحكم في الجزئيات الجديدة الوقوع، ففي الصورة الأولى تترتب المفاسد التي تم ذكرها في عدم تعيين المذهب الواحد، وفي الثانية يجب المصير إلى الاجتهاد، مع أنكم قد أثبتّم انقطاع سلسلة الاجتهاد، وكونَه مؤديًا إلى الفساد، ففي كلتا الصورتين يلزم المحظور.

الجواب:

المسائل المهمة التي يجلب الاختلافُ فيها

المفاسدَ، ما بقيت مختلَفًا فيها أو مسكوتًا عنها. فقد قام الفقهاء في أكثر مثل هذه الروايات بتمييز الراجح من المرجوح، فلا مساغ للشبهة فيها. وأما الروايات التي لم يتميز راجحها من مرجوحها، وإنما هي متساوية الجانبين، فبما أنها قليلة بالنسبة إلى الروايات الأخرى، ومعقودة بأصول متحدة؛ لايلزم الإطلاق الموجب للفساد. وأما الجواب عن الجزئيات المسكوت عنها فهو أيضًا يظهر من أصول المذهب المحدد. و قد مر الجواب في الشبهة التاسعة أن مثل هذا الاجتهاد في بعض النوازل والقضايا لايزال بابه مفتوحًا، فلا يلزم في ذلك الإطلاقُ الذي يوجب الفساد. ودرء المفاسد هو المقصود بالذات. كما مر الجواب حاليًّا في الشبهة الثانية والعشرين.

الشبهة الخامسة والعشرون:

هناك غلاة يزعمون التقليد الشخصي مثل الفرائض والواجبات المقصودة بالذات؛ بل أكبر من ذلك، ولا يلاحظون شيئًا أحكام الكتاب والسنة لغاية جمودهم، وهذا من المعتقدات الخاطئة الفاسدة، وقد تقررت القاعدة في الشرع أن ما يؤدي إلى فساد عقيدة الخلق و إغوائهم يكون محظورًا فيجب المنع عن التقليد الشخصي؟

الجواب:

هذه القاعدة تخص ما ليس من الواجبات الشرعية، كما سبقت الإشارة إلى هذا التخصيص في نهاية المقصد الخامس تحت حديث عمر رضي الله عنه الذي جاء فيه طلب الإذن بكتابة بعض أقوال اليهود. وما وجب شرعًا لو تسربت إليه المفاسدُ، تُدرأُ تلك المفاسد ويُنقَذ المسلمون منها، ولا يُحظر ذلك الواجب الشرعيُّ نفسه بسبب تلك المفاسد، وإلا فمن الظاهر أن تبليغ القرآن الكريم كان يزيد البعض ضلالةً، ولكن لم يُفرض المنع على التبليغ حتى لمدة يوم واحد، فلما ثبت وجوب التقليد الشخصي بالدلائل، فلو تطرق إليه الفساد يُدرأ عنه ولا يُمنع أبدًا عن التقليد الشخصي. وقد جاء المنع عن مثل هذا الغلو في عدة مواضع من هذه الرسالة تبعًا وضمنًا، وسيأتي في المقصد السابع أصالةً وقصدًا.

وقد جاء الرد في هذا الفصل على خمس وعشرين شبهةً، وأرجو أن تكون هذه الأجوبة – بشيء من التبديل – شفاءً لغيرها من الشبهات – إن شاء الله تعالىٰ. وإلا فهناك علماء كثيرون – تكفل الله بحفظهم – في كل مكان، فليراجعوهم.

المقصد السابع: في النهي عن الإفراط والتفريط في التقليد، والتأكيد على التمسك بالاقتصاد

إنكار التقليد ورفضه يستحق الاستنكار والملامة، كذلك يجب استنكار الغلو والتنطع والجمود والتطرف في التقليد، وقد تبين أعلاه على الطريق السوي المستقيم أن تقليد المجتهد لايكون بمظنة أنه هو الشارع والمثبت للأحكام؛ بل باعتقاد أنه يبين الأحكام ويوضح الشرائع ويُظهر ما أراده

الله ورسوله من معنى. فيجب التقليد ما دام هو خاليًا مما ينافي هذا الاعتقاد ويرفعه. فإذا كان هناك عالم – يملك سعة العلم وذكاء الفهم و وسطية الطبع – يتوصل اعتمادًا على تحقيق منه، أو هناك عامي صالح القريحة يتوصل اعتمادًا على إخبار عالم من العلماء؛ يتوصلان إلى أن الراجح في المسألة هو الطرف الآخر، و شهد قلبهما بذلك، فيجب أن ننظر: هل هناك مجال لأن نعمل بذلك الجانب المرجوح بدليل من الأدلة الشرعية، فإن كان هناك مجال للعمل فالأولى والأمثل أن نعمل بذلك الطرف المرجوح – إذا أدى العمل بالجانب الراجح إلى إيقاع الفتنة بين الناس وتشويشهم – لئلا تتفرق على المسلمين كلمتهم، والدليل على ذلك ما يلي من الأحاديث:

الحديث الأول:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عن قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بالكُفْرِ لَفَعَلْتُ(٥).

فائدة:

يعني أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستقر رأيه على إعادة بناء الكعبة، خوفًا منه أن يستنكر الناس ما يستنكرون من أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدم الكعبة. فانظر : كان هناك من الراجح أن يُستأنف البناء على قواعد إبراهيم، ولكن النبي ﷺ فضَّل الطرف المرجوح – وهو ترك الكعبة على غير قواعد إبراهيم – الذي هو أيضًا جائز وإن كان مرجوحًا؛ ولم يكن ذلك إلا لدفع توهم الناس واستنكارهم. ولما اندفع هذا الاحتمال رَدَّها عبد الله بن الزبير على قَواعِدِ إبراهيمَ بناءً على هذا الحديث، ولكن نقض الحجاج بن يوسف ما زاده وأعادها إلى بنائها السابق. فدلالة الحديث على ما أردناه جلية واضحة.

الحديث الثاني:

أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ صلَّى بمِنى أربعًا فقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ مُنكِرًا عليه : صليتُ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتَينِ ومع أبي بكرٍ ركعتَينِ ومع عمرَ ركعتَينِ ومع عثمانَ صدرًا من إمارتِه ثم أتمَّها ثم تفرقَتْ بكم الطرقُ فلوددتُ أنَّ لي من أربعِ ركعاتٍ ركعتَينِ مُتقبَّلتَينِ، ثم إنَّ ابنَ مسعودٍ صلَّى أربعًا فقيل له: عِبتَ على عثمانَ ثم صليتَ أربعًا قال: الخلافُ شرٌّ(٦).

فائدة:

عُلم بهذا الحديث أن القصر في السفر وإن كان راجحًا عند ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إلا أنه أتم الصلاة – مع كونه مرجوحًا عنده – لمجرد دفع الشر والخلاف، وقد رُوي أنه كان يراه جائزًا.

فثبت بالحديثين المذكورين أن المرجوح إذا كان جائزًا فهو أولى بالأخذ. وإن لم يكن هناك مجال

للعمل بالمرجوح ؛ بل يلزم منه المحظور أو ترك الواجب، ولا يكون في الطرف المرجوح دليل سوى القياس، وفي الجانب الراجح يوجد حديث صحيح صريح، فيجب العمل بذلك الحديث دونما تردد، ولايجوز في ذلك تقليد إمام من الأئمة؛ فإن أصل الدين هو القرآن والحديث. والمقصود بالتقليد هو العمل بهما بصحة ويسرٍ. وإذا لم يوافق التقليدُ القرآنَ ولا الحديث، فالعمل بهما هو الواجب. والإصرار على التقليد حتى في مثل هذه الحال هو التقليد الذي ذمه القرآن والحديث واستنكره العلماء. فقد ورد في الحديث النبوي الشريف عن عدي بن حاتم الطائي قال: أتيتُ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وفي عنقي صليبٌ من ذَهبٍ. فقالَ: يا عديُّ اطرح عنْكَ هذا الوثَنَ وسمعتُهُ يقرأُ في سورةِ براءة اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ: أما إنَّهم لم يَكونوا يعبدونَهم ولَكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليْهم شيئًا حرَّموه(٧).

فائدة:

يعني أنهم يُؤثِرون ما قاله أحبارهم ورهبانهم من أقوالٍ على كتاب الله تعالىٰ، مع علمهم بأن تلك الأقوال معارضة لكتاب الله، فهذا هو الذي ذمه الكتاب والسنة. أما سلفنا الصالح وكبارنا من العلماء والفقهاء فكان من عادتهم أنهم إذا علموا علم اليقين أن أقوالهم أو أقوال غيرهم تعارض ما أمره الله ورسوله، ما لبثوا أن تركوه. فقد ورد عن عيسى بن نميلة، عن أبيه، قال: سُئِلَ ابن عمر عَنِ الْقُنْفُذِ، فَقَالَ: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ الآية [الأنعام:١٤٥]، فَقَالَ شَيْخٌ عِنْدَهُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: خبيثةٌ مِنَ الْخَبَائِثِ، فقال ابنُ عمر: إن كان رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال هذا فهو كما قال(٨).

ولم يزل علماء الحنفية متمسكين بذلك، فقد سبق في الجواب عن الشبهة الرابعة والعشرين أنهم تركوا بعض أقوال إمامهم، ويتجلى بذلك كذب اتهامهم بالعصبية والتقليد الجامد، ومنشأ الكذب النظر في الروايات دونما دراية تامة في الأغلب. وثبت في المقصد الثالث عدم التعويل على مثل هذا النظر. ولكن لا يجوز أبدًا - حتى في هذه الصورة التي يتركون فيها التلقيد لإمامهم – شيء من إساءة الأدب إليهم أو إطالة اللسان عليهم أو إساءة الظن بهم بأنهم خالفوا الحديث؛ لأنه يمكن أن الحديث لم يبلغهم أو بلغهم ولكن بسند ضعيف واهٍ، أو أوّلوه بقرينة شرعية، فهم معذورون. ويندرج في إطالة اللسان عليهم الطعنُ في كمالهم العلمي، فإن بعض الأحاديث لم تبلغ - إلى مدة - حتى بعض كبار الصحابة الكرام الذين لا نزاع في كمالهم العلمي-؛ ومع ذلك لم يُعدّ ذلك عيبًا فيهم. فجاء في الحديث عن عبيد بن عمير في قصة استئذان أبي موسى على عمر، قال عمر رضي الله عنه: خفي هذا علي من أمر

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألهاني عنه الصفق بالأسواق[٩].

فائدة:

ففي هذه القصة تصريح بأن عمر بن الخطاب لم يكن مطلعًا على حديث الاستيذان؛ ولكن لا نجد أحدًا يَطعن عليه أنه قليل العلم بالأحاديث. فقس عليه المجتهد، فإن الطعن عليه مذموم. وكذلك لا يجوز الطعن على مقلده الذي يقلده، ولم ينشرح قلبه إلى الآن، ولا يزال يُحسن الظن بأن المجتهد لن يخالف الحديث، فيقلده ولا يرفض الحديث ولايفهم وجه موافقته مفصّلًا؛ لأن هذا المقلد متمسك بدليل الشرع، ولايقصد إلا اتباع الشرع.

وكذلك لا يجوز لذلك المقلد أن يسُبّ من ترك التقليد في هذه المسألة لما ذُكر من العذر؛ لأن اختلافهم إنما هو الاختلاف الذي يتوارثه السلف، وقد قال العلماء في ذلك: مذهبنا حق وصواب ظنًا مع احتمال الخطأ، ومذهب غيرنا خطأٌ ظنًا؛ ولكن يحتمل الصواب، وبذلك يندفع ما يُتوهم من أنه لما ثبت أن الكل محق وصواب فلما ذا يُعمل بالواحد فقط؟ فإذا كان الآخر أيضا يحتمل الصواب فكيف يجوز تضليل أحد أو تفسيقه أو عزوه إلى البدعة أو تلقيبه بالوهابية أو الوقوع في التحاسد والتباغض والمكابرة والمنازعة والأخذ بطريق الغيبة والسب والشتم واللعن والطعن وغير ذلك مما هو حرام قطعًا.

نعم، من يخالف في العقائد أو في المسائل المجمع عليها أو يسبّ السلف الصالح فليس من أهل السنة والجماعة؛ فإن أهل السنة والجماعة هم من يسلكون في العقائد مسلك الصحابة الكرام، وهذه الأمور تعارض عقائدهم، فمثل هذا الرجل خارج من أهل السنة، وداخل في أهل البدع والهوى. وكذلك إذا غلا أحد في التقليد حتى يرفض القرآن والحديث، فَحَذَارِ مثلَ هذين الشخصين، وكذلك لابدّ من الإعراض عن المجادلة المتعارفة معهما. وهذا هو الحق الوسط، وأما ماعدا ذلك فغلط وسقط. اللّهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه و الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

* * *

الهوامش:

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٥٥/١.

(٢) ١٤٥/٤.

(٣) أخرجه مطولًا أبو داود: ٤٦٠٧، والترمذي: ٢٦٧٦، وابن ماجه: ٤٤، وأحمد: ١٧١٤٤.

(٤) الأنفال: ٣٩.

(٥) صحيح البخاري، برقم: ١٥٨٣.

(٦) أخرجه أبو داود (١٩٦٠)

(٧) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)

(٨) سنن أبي داود: كتاب الأطعمة باب في أكل حشرات الأرض، حديث رقم: ٣٧٩٩.

(٩) أخرجه البخاري: ٧٣٥٣، ومسلم :٢١٥٣.

* * *

صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

بقلم: أبو عائض المباركفوري

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

فإن قلت: من البدهي أن قوله: (وهم يعلمون) بمعنى (عقلوه) فما الحكمة في ذكره وهو معلوم مما قبله؟

أثار هذا السؤال الإمام الرازي وأجاب عنه فقال: «أجاب عنه القفال من وجهين:

الأول: من بعد مافهموا مراد الله فأولوه تأويلًا فاسدًا يعلمون أنه غير مراد الله. وذكره الزمخشري، والبيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي[1].

الثاني: أنهم عقلوا مراد الله وعلموا أن التأويل الفاسد يكسبهم العقوبة والوزر من الله تعالى ومتى تعمدوا التحريف مع العلم بما فيه من الوزر كانت أشد قسوةً وأعظم جرأةً. ولما كان المقصود من ذلك تسلية الرسول ﷺ وتصبيره على عنادهم فكلما كان عنادهم أعظم كان ذلك في التسلية أقوى. ذكره الآلوسي[2].

وقال أبو السعود: وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعل (يحرّفونه) مفيدةٌ لكمال قباحةِ حالِهم مُؤْذِنةٌ بأن تحريفَهم ذلك لم يكن بناءً على نسيان ما عقَلوه أو على الخطأ في بعض مقدِّماته؛ بل كان ذلك حالَ كونهم عالمين مستحضِرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومُفترون[3].

٢٥- قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة:٧٩].

في هذه الآية بدهيتان:

الأولى: أن من لازم الكتابة أن يكون باليد فما الحكمة في ذكر (بأيديهم)؟

والجواب من وجوه:

الأول: هوتأكيد يرفع توهم المجاز فإن قولك: زيد يكتب، ظاهره أنه يباشر الكتابة، ويحتمل أنه ينسب إليه على طريق المجاز، ويكون آمرًا بذلك كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كتب،

وإنما المعنى أمر بالكتابة؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنه النبي الأمي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٨]. ونظير هذا التاكيد ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ و﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ وقوله:

نظرت فلم تنظر بعينيك منظرًا

فهذه كلها أتي بها لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ ولرفع المجاز الذي كان يحتمله. ذكره الرازي وأبو حيان وابن عاشور و الآلوسي(٤).

الثاني: إنه لتقبيح فعلهم؛ إذ لم يكتفوا بأن يأمروا بالاختلاق والتغيير حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم واجترحوه بأيديهم. ذكره أبوحيان وابن عاشور(٥).

الثالث: قول حكاه أبو حيان عن ابن سراج وتعقبه فقال: قال ابن سراج: ذكر الأيدي كنايةً عن أنهم اختلقوا ذلك من تلقائهم ومن عند أنفسهم من غير أن ينزل عليهم. انتهى كلامه. ولا يدل على ما ذكر؛ لأن مباشرة الشيء باليد لا تقتضي الاختلاق ولا بد من تقدير حال محذوفة يدل عليه ما بعدها. والتقدير: يكتبون الكتاب بأيديهم محرفًا أو نحوه مما يدل على هذا المعنى؛ لقوله بعده: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ إذ لا إنكار على من يباشر الكتاب بيده إلا إذا وضعه في غير موضعه. فلذلك قدرنا هذه الحال(٦). وذكر هذا القول ابن عاشور أيضا(٧).

الثانية:

كرر لفظ «ويل» رغم أن الثاني يدل عليه الأول فما الحكمة في هذا التكرير؟

أثار هذا السؤال الرازي وأجاب عنه حيث قال: أما قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فالمراد أن كتبتهم لما كتبوه ذنب عظيم بانفراده، وكذلك أخذ المال عليه؛ فلذلك أعاد ذكر «الويل» في الكسب ولو لم يعد ذكره كان يجوز أن يقال: إن مجموعهما يقتضي الوعيد العظيم دون كل واحد منهما، فأزال الله هذه الشبهة. وذكره أبو حيان أيضًا، و الآلوسي(٨).

٢٦- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

فإن قلت: إن التولي والإعراض بمعنى؛ دل على الثاني الأول منهما فما الحكمة من ذكره؟

قلنا فيه وجوه:

الأول: أن الثاني مؤكد للأول. وهما بمعنى. والجملة الثانية حال مؤكدة للأولى. ذكره أبو حيان والآلوسي(٩).

الثاني: أن التولي غير الإعراض. فلا تكرار، وتكون الحال مبينةً. وأما وجه الفرق بينهما فقيل: إن

الأول قـد يكـون لحاجـة تـدعو إلى الانـصراف مـع ثبوت العقد، والإعراض هو الانصراف عن الشيء بالقلب. وقيل: إن التولي أن يرجع عوده إلى بدئه، والإعراض أن يترك المنهج ويأخذ في عرض الطريق و المتولي أقرب أمرًا من المعرض؛ لأنه متى عزم سهل عليه العود إلى سلوك المنهج، والمعرض حيث ترك المنهج وأخذ في عرض الطريق يحتاج إلى طلب منهجه فيعسر عليه العود إليه، وتكون الحال مبينةً. ذكره أبوحيان، والآلوسي(١٠).

الثالث: أنهما بمعنى واحد إلا أن الأول يتعلق بغير مايتعلق به الثاني فالمعنى: ثم توليتم عن عهد ميثاقكم وأنتم معرضون عن هذا النبي ﷺ. ذكره أبوحيان(١١).

الرابع: ﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ جملةٌ تذييلية أي: وأنتم قومٌ عادَتُكم الإعراضُ عن الطاعة ومراعاةِ حقوقِ الميثاق. ذكره أبوالسعود(١٢).

الخامس: ما ذكره الآلوسي واستبعده فقال: ومن الناس من جوز أن يكون (معرضون) على ظاهره، والجملة حال مقيدة أي لم يتول القليل وأنتم معرضون عنهم ساخطون لهم فيكون في ذلك مزيد توبيخ لهم ومدحًا للقليل - فهو بعيد- كالقول بأنها مقيدة. ومتعلق التولي والإعراض مختلف أي: توليتم على المضي في الميثاق، وأعرضتم عن اتباع هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١٣).

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩)

والبدهي هنا أن مفاد جملة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) ومفاد جملة (فلما جاءهم ماعرفوا) الآية واحد فما الحكمة في تكرارها؟ وما فائدة تكرار «لما» في الجملة الثانية؟

يقول ابن عاشور: وإعادة لما «في الجملة الثانية دون أن يقول: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فجاءهم ما عرفوا كفروا الخ. قصد إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتتحتين لـ«لما» وزيادة الربط بين المعنيين حيث انفصل بالجملة الحالية فحصل بذلك نظم عجيب وإيجاز بديع. وطريقة تكرير العامل مع كون المعمول واحدًا طريقة عربية فصحى. قال الله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٨٨] وقال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥]، فأعاد «أنكم» قبل خبرالأولى(١٤).

٢٨- قال الله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ

مُّهِينٌ﴾ [البقر:٩٠].

البديهي هنا أن العذاب لا يكون إلا مهينًا فما فائدة وصفه به؟

قلنا: ذلك لوجوه:

الأول: كون العذاب مقرونًا بالإهانة أمر لا بد فيه من الدليل، فالله تعالى ذكر ذلك ليكون دليلًا عليه.ذكره الرازي(١٥).

الثاني: إن المهين هوالمورث صاحبه ذلّةً وهوانًا، يخلد فيه صاحبه لا ينتقل من هوانه إلى عزّ وكرامة أبدًا، وهو الذي خصّ الله به أهل الكفر به وبرسله، وأما الذي هو غير مهين صاحبه: فهو ما كان تمحيصًا لصاحبه، وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام يسرق ما يجب عليه به القطع فتُقطع يده، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحدّ، وما أشبه ذلك من العذاب، والنكال الذي جعله الله كفاراتٍ للذنوب التي عذّب بها أهلها، وكأهل الكبائر من أهل الإسلام الذين يعذّبون في الآخرة بمقادير أجرامهم التي ارتكبوها ليمحَّصوا من ذنوبهم ثم يدخلون الجنة. فإن كل ذلك وإن كان عذابًا فغير مهين من عذّب به؛ إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحصه من آثامه ثم يورده معدن العزّ و الكرامة و يخلد في نعيم الجنان. ذكره الطبري، و أبوحيان والقرطبي و الآلوسي والبيضاوي(١٦).

٢٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقرة:٩٦]

من البدهيات أن «الذين أشركوا» قد شملهم قوله «الناس» فما فائدة إفرادهم بالذكر؟

ذكر الرازي فائدته قائلًا: «أفردوا بالذكر؛ لأن حرصهم شديد، وفيه توبيخ عظيم؛ لأن الذين أشركوا لايؤمنون بالمعاد، وما يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لايستبعد؛ لأنها جنتهم، فإذا زاد عليه في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقًا بأعظم التوبيخ. فإن قيل: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلنا: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لامحالة والمشركون لا يعلمون ذلك. وذكره أيضًا الطبري و أبوحيان، و القرطبي(١٧).

٣٠- قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]

من البدهي أن جبريل وميكال يشملهما «ملائكته» فما فائدة ذكرهما مرةً ثانيةً؟

والجواب من وجهين:

الأول: أفردهما بالذكر لفضلهما كأنهما لكمال فضلهما صارا جنسًا آخر سوى جنس الملائكة. كما في قوله تعالى ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، ذكره الرازي و القرطبي(١٨).

الثاني: أن الذي جرى بين الرسول واليهود هو ذكرهما، والآية إنما نزلت بسببهما فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود: إنا لم نعاد ملائكته فنص الله عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص. ذكره الطبري والرازي والقرطبي(١٩).

٣١- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [البقرة:١٠١]

فإن قيل: إن «ظهور» بمعنى «وراء» فما فائدة الجمع بينهما؟

أثار ابن عاشور هذا السؤال ورد عليه قائلًا:

وإضافة «الوراء» إلى «الظهر» لتأكيد بعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك فجعل للظهر وراء، وإن كان هو هنا بمعنى الوراء. فالإضافة كالبيانية.

وبهذا يجاب عما نقله ابن عرفة عن الفقيه أبي العباس أحمد بن عبلون أنه كان يقول: مقتضى هذا أنهم طرحوا كتاب الله أمامهم؛ لأن الذي وراء الظهر هو الوجه، وكما أن الظهر خلف للوجه كذلك الوجه وراء للظهر. قال ابن عرفة: وأجيب بأن المراد بذكر الظهر تأكيد لمعنى وراء كقولهم: من وراء وراء(٢٠).

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

فإن قيل: إن قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما يدل على أن في ذريته من يكون ظالمًا فكذلك يوجد فيهم من لا يكون ظالمًا، فإذن كون بعض ذريته أمةً مسلمةً صار معلومًا بتلك الآية، فما الفائدة في طلبه بالدعاء مرةً أخرى؟

رد الرازي على هذا السؤال فقال: تلك الدلالة ما كانت قاطعةً والشفيق بسوء الظن مولع(٢١).

٣٣- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [البقرة:١٣٣]

من المعلوم أن «إلهًا» دل عليه قوله: «إلهك»؛ فإنه مرادف له في اللفظ والمعنى،فما فائدة إعادة «إلها»؟

أجيب عنه من وجوه:

الأول: قال ابن عاشور: فقوله: «إلهًا» حال من «إلهك» ووقوع «إلها» حال من «إلهك» مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه؛ إنما هو باعتبار إجراء الوصف عليه بواحد. فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف وإنما أعيد لفظ: «إلهًا» ولم يقتصر على وصف «واحدًا» لزيادة الإيضاح؛ لأن المقام مقام إطناب. ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله. وهذا أسلوب من الفصاحة؛ إذ يعاد اللفظ ويبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعًا. وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢] وقوله: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٢] إذ أعاد فعل «أمدكم».

ومنه قول الأحوص:

فإذا تزول تزول عن متخمط

تخشى بوادره على الأقران

وقال ابن الجني في شرح الحماسة: محال أن تقول: إذا قمت قمت؛ لأنه ليس في الثاني غير ما في الأول، وإنما جاز أن يقول: تزول تزول؛ لما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفاد منه الفائدة. ومثله قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ [سورة القصص:٦٣]، إذا فـ«إلها» حال موطئة، جيء باسم الذات توطئةً للوصف(٢٢).

ويجوز أن يكون بدلًا، وهو بدل نكرة موصوفة من معرفة(٢٣).

الثاني: يقول أبو حيان: وفائدة هذه الحال أو البدل هو التنصيص على أن معبودهم واحد فرد؛ إذ قد توهم إضافة الشيء إلى كثيرين تعداد ذلك المضاف فنص بهذه الحال أو البدل على نفي ذلك الإيهام(٢٤).

* * *

الهوامش:

(١) الزمخشري تفسير الآية؛ البيضاوي ١/٣٤٧؛ أبوالسعود ١/١١٨؛ الآلوسي١/٢٩٨.

(٢) الرازي ٣/١٠٥؛ الآلوسي١/٢٩٨.

(٣) أبوالسعود ١/١١٨.

(٤) الرازي ٣/١٠٥؛ البحر المحيط ١/٤٤٧؛ ابن عاشور ص٥٧٧. الآلوسي١/٣٠٢.

(٥) والبحر المحيط ١/٤٤٧؛ ابن عاشور ص٥٧.

(٦) البحر المحيط ١/٤٤٧.

(٧) ابن عاشور ص ٥٧.

(٨) الرزاي ٣/١٥٠؛ البحر المحيط١/٤٦٤؛ الآلوسي١/٣١١.

(٩) البحر المحيط ١/٤٤٧؛ الآلوسي١/٣١١.

(١٠) البحر المحيط ١/٤٤٧؛ الآلوسي١/٣١١.

(١١) البحر المحيط١/٤٦٤.

(١٢) أبوالسعود ١/١٢٧؛ الآلوسي١/٣١١.

(١٤) ابن عاشور ١/٦٠٢. راجع أيضا: الآلوسي ١/٣٢٠-٣٢١.

(١٥) التفسير الكبير للرازي ٣/١٩٩.

(١٦) تفسير معارف القران ١/٢٠٤ ط: مكتبة رباني، الهند؛ القرطبي ٢/٢؛ الطبري ١/٣٣٢؛ أبوحيان تفسير الآية؛ الآلوسي ١/٣٢٣؛ لبيضاوي ١/٣٥٩.

(١٧) الطبري ١/٣٣٩؛ الرازي ٣/٢٠٨؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ والقرطبي ٢/٣٦-٣٧.

(١٨) الرازي ٣/٢١٤؛ القرطبي ٢/٣٦.

(١٩) الرازي ٣/٢١٤؛ الطبري١/٣٤٩؛ القرطبي ٢/٣٦.

(٢٠) ابن عاشور ١/٦٢٦.

(٢١) التفسير الكبير ٤/٦٧.

(٢٢) ابن عاشور ١/٧٣٤؛ البحر المحيط ١/٦٤٢.

(٢٣) البحر المحيط ١/٦٤٢.

(٢٤) البحر المحيط ١/٦٤٢.

* * *

في المولد النبوي الكريم

بقلم: الشيخ/ عبد الفتاح القاضي

إن مقياس نهوض الأمة ودليل رقيها، هو معرفة قدر عظمائها، والإشادة بذكر أبطالها، تقديسًا لهؤلاء العظماء. وفخرًا ببطولة هؤلاء الأمجاد، الذين خلد لهم التاريخ في صحائف العظمة أعمالًا جليلةً مبرورةً، فكانت حياتهم مثلًا أعلى لأممهم، تطلب منهم التأسى بهم. وتتبع آثارهم، وليس في العالم أمة أعظم ثروةً في ميدان العظمة وساحة البطولة من الأمة الإسلامية.

ومن أعظم من محمد وهو المؤسس الأعظم لهذه الأمة الكريمة؟ أجل: لا أحد أجل قدرًا، ولا أعظم أثرًا، في العالم شرقه وغربه، أرضه وسمائه، من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه.

لقد أكرمه الله تعالى – وهو في عالم الغيب – فصان أرومته من رجس الجاهلية، وطهر عنصره من دنس السفاح، ونظمه في سلك من النسب، كسلسلة من الذهب، لا تجد فيه إلا لؤلؤةً يتيمةً، أو جوهرةً كريمةً.

وما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتهاداه الأصلاب المباركة، والأرحام النقية الطاهرة، فيتنقل فيها تنقل البدر في منازل ا لسعود حتى أفضى إلى أنجب بني عبد المطلب، وزهراء بني زهرة. فياطيب الآباء، ويا كرم الأمهات!.

وقد تخير الله تعالى لإبراز هذه الجوهرة الكريمة وإشراق هذا الضياء على الأرض، شهر ربيع الأول، فولد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم الثاني عشر: مع الفجر منه إيذانًا بانقضاء ليل الشرك والجهالة، وبزوغ فجر العلم والهداية، فأشرقت الأرض بنور ربها، وطلع محمد على هذا الوجود مشرق الوجه، أغر الجبين، مليح الطلعة جميل المحيا.

وما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينمو ويترعرع، محفوفًا بعناية ربه، محفوظًا من دنس الجاهلية ورجس الوثنية، حتى شب مطهرًا مما كان يقع فيه شباب هذا العصر، معروفًا بمكارم الأخلاق، حتى سموه الصادق الأمين.

ولما أراد الله تعالى إنقاذ العالم مما هو فيه من أسباب الدمار والهلاك، أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين، فاستجاب لنداء ربه، وصدع بأمره غير هيابٍ ولا وجلٍ.

وهنا يتجلى أروع صراع سجله التأريخ بين الحق والباطل؛ والنور والظلام، فقد كان العالم قبيل بعثته ﷺ، مصابًا بالفوضى في جميع شؤونه وأحواله: فوضى في عقائده وأخلاقه، فوضى في آدابه وعاداته، فلم يكن للأسرة نظام، ولا للقبيلة قانون، ولا للأمة دستور، ولا للعقيدة شريعة. إنما هي أحجار ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها، وأشجار تأكلها النار أمامهم ثم يؤلهونها، ونيران يوقدونها بأيديهم ثم تخمد وتصير ترابًا يدوسونه بأقدامهم ثم هم أنفسهم يمجدونها، وكواكب يصيبها الكسوف والأفول ثم يقدسونها. ومنهم من كان يعبد الملائكة أو الجن أو بعض المخلوقين.

أما أهل الكتاب فلم يكونوا أحسن حالًا من العرب إذ ذاك، فإنهم قد ضلوا وأضلوا وخرجوا عن أصل التوحيد، واعتقدوا التعدد في الإله. وغفلوا عن واجب التنزيه لله وشبهوا به بعض خلقه؛ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. ثم تطاعن الطائفتان وتلاعنوا، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء. وهم يتلون الكتاب. ولكن كتاب الله صار ألعوبةً في أيديهم، يخفون منه كثيرًا، ويزيدون عليه كثيرًا، ويحرفون فيه كثيرًا، يطلبون بذلك عرض هذه الحياة الدنيا، ويرجون من وراء هذا التغيير والتبديل حاجةً في أنفسهم من رياسة أو شهرة، أو مال أو خطوة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فالعالم ضلال في عقيدته، لا فرق بين أمة وأمة، ولا بين طائفة وطائفة؛ إلا من عصم ربك، وقليل ما هم.

أما الأخلاق فلم تكن يومئذ إلا ملكات مهلكة تملأ الدنيا شرًا وفتنةً، فكبر وضعة، واستبداد وخنوع، وأثرة وذلة، وحقد واحتقار، أخلاق متناقضة متباينة، لكنها كانت فيما بينهم موزعةً. فحكام يستعبدون الشعوب، وعلماء يستبدون بالجهال، وطبقات أشراف يسخرون العامة ويسخرون منهم، ورؤساء أديان يحتكرون وحي الله وشرعه، ويمنعون العامة أن يتفهموه، ولا يظهرونه لهم إلا بعد أن يغيروه ويحرفوه.

أما المرأة فما كان أسوأ موقفهم منها، وما كان أشقاها بهم. لم يكن لها عندهم أدنى احترام ولا أقل كرامة؛ بل كانت عندهم كالسلعة تباع وتشرى. وتوهب وتورث. وأكرهوا فتياتهم على البغاء يتجرن في أعراضهن ويأتين لهم بالمال وهن يردن العفاف؛ بل أمعنوا في ظلم هذا الجنس فاعتبروه مجردًا من خصائص الإنسانية، ووصلت الوحشية ببعض

الناس إلى حد أنهم كانوا يدفنون بناتهم وفلذات أكبادهم على قيد الحياة خوفًا في زعمهم من الفقر أو العار.

تلك صورة مصغرة من حياة الجاهلية الجهلاء التي تركت الدنيا قبل نبي الإسلام ظلامًا، وملأت العالم كله شرًا وفتنةً، لا تفرق بين عرب وعجم، ولا بين شرق وغرب. وإن اختلفت المظاهر وتفاوتت المناكر. ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يتركهم فريسةً لهذه الاضطرابات والفتن، وضحيةً لتلك العوادي والمحن. فبينما الكون كذلك في ظلماته الحالكة، ومظالمه المهلكة، إذا بالنور المحمدي لاح في العالمين فلاحه، وتنفس بعد طول الليل في الخافقين صباحه. ونادى منادي السلام والحرية أن قد آن أوان المبعوث برحمة الإنسانية، يملأ العالم عدلًا وفضلًا، ويكسو الكون خلقًا ونبلًا، ويأسو جراح الإنسانية المعذبة برحمته، ويعالج أمراض النفوس السقيمة بحكمته، ويطب قلوب الناس بتعليمه وتهذيبه، ويداوي شذوذهم بسياسته وتأديبه، ويجاهد ويجالد حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى. فكان مبعثه الفصل بين ماضٍ زاخرٍ بالمآثم، وآتٍ حافلٍ بالعظائم.

أطلق العقول من عقالها، وبعث الحرية من قبرها، ورفع النفوس البشرية إلى سماء العزة والكرامة، وقضى على الوثنية القضاء المبرم، ووضع للناس مبادئ التوحيد والعبادة، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة وعدل بين الحقوق بالمساواة، ودخل بين الناس بالمحبة، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته، وأحس الفقير أن بيت المال ثروته، وعرف الوحيد أن المؤمنين جميعًا إخوته، ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان. فأصبحوا غداة غد يدينون بعقيدة واحدة، وملة واحدة، ويخضعون لإله واحد، ويتجهون لقبلة واحدة. فتحولت الأمة العربية في أقل من ربع قرن من ذل إلى عز، ومن ضعف إلى قوة، ومن عبودية مرذولة إلى حرية معقولة، ومن وثنية بغيضة إلى توحيد خالص، ومن انحلال وتخاذل إلى تعاون وتناصر.

فإذا كان المسلمون جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها يحتفلون بذكرى مولد هذا النبي الكريم، فإنما يحتفلون بذكرى مولد كرائم الأخلاق ونبائل الخلال، من إباء وشمم، ووفاء وكرم، وقوة إيمان وإرادة. يحتفلون بذكرى العدالة والمساواة، ذكرى الصدق والأمانة والعفة والشجاعة، يحتفلون بذكرى البطولة الخالدة، والعظمة الباقية على مر الدهور والأعوام.

* * *

شهادات الأعداء بحق الإسلام وصاحبه عليه الصلاة والتسليم

بقلم: الأستاذ/ محمد حسان أنور القاسمي(*)

رغـم التحـديات البالغـة المكثفـة للإسـلام و الشبهات المثارة حوله مازال الإسلام ولايزال يتقدم إلى الأمـام ويقفـز ويزدهـر ويتفـتح، حيـث مـر عليـه أربعة عشر قرنًا وهو يبقى كما كان في القرن الأول، ويتمثـل وضـاءً مـشرقًا رائجًـا منتـشرًا معمـولًا بـه حـسب مايرتـضيه صـاحبه، فاسـتمراريته عمـلًا وتطبيقًا منذ يومه الأول إلى يومنا هذا تشف بوضوح وضـوح الـشمس في رابعـة النهـار عـن حقـه وصـحته وكونه منزلًا من السماء، من الله رب العالمين. وتدل عـلى أن صـاحبه محمـدًا عـلى الحـق، عـلى الخـير، عـلى الرشـد والهدايـة وهـو نبـي الله ورسـوله بلامريـة وشـك، عليـه الـصلاة والـسلام، الأمـر الـذي يبهـر أعـداء الإسـلام، ويحـوجهم إلى مطالعـة الإسـلام ودراسته عـن كثـبٍ ودقـة نظـرٍ إلى جانـب اطلاعهـم على حياة صاحبه عليه الصلاة والتسليم.

فلما رأوا الإسلام ودرسوا دراسةً أنيقةً طويلةً متأنيـةً تجـلى لهـم العوامـل والأسـباب التـي أدت إلى بلوغه قمة الجمال وذروة الكمال، وعمومه من أقصى الدنيا إلى أقصاها، وقبوله في جميع الطبقات البشرية من الأسود والأحمر والعرب والعجم، وبقاءه ليومنا المعاصر وخلوده ليوم القيامة، و عَنَّ لهم مايحمل في ثناياه من المزايا والخصائص وتبلور لهم من السر مابه يتجاذب إليه أفراد البشر تجاذب الحديد إلى المقناطيس، ويتطاير تطاير الفراش على النور. ولم لا؟! فإن الإسلام دين حق، دين نزل من السماء، دين بشَّر به أنبياء بني إسرائيل، دين استبشر به في كتب موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام -، دين صاحبه خاتم النبيين والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وفيما يلي أورد قبسًا نموذجيًا من أقوال أعداء الإسلام في شتى المناسبات في مدح وثناء محمد نبينا ورسولنا - عليه الصلاة والسلام -.

لا يخفى على من له إلمام بتاريخ الهند شخصية المهاتما غاندي (٢/أكتوبر ١٨٦٩-٣٠/يناير ١٩٤٨م)، الذي كان رجلًا بطلًا له دور كبير حيوي في كفاح تحرير البلاد، وله دوي وصيت وتقدير على الصعيدين العلمي والسياسي في العالم كله، فهو يتحدث عن الرسول الكريم قائلًا: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذى يملك بلا منازع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن

(*) أستاذ بمدرسة تحفيظ القرآن بتنه، بهار، الهند.

الـسيف لم يكـن الوسـيلة التـى مـن خلالهـا اكتـسب الإسـلام مكانتـه؛ بـل كـان ذلـك مـن خـلال بـساطة الرسـول، مـع دقتـه وصـدقه في وعـوده، وتفانيـه وإخلاصـه لأصـدقائه وأتباعـه، وشـجاعته مـع ثقتـه المطلقة في ربه وفي رسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق وتخطت المصاعب وليس السيف.. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي آسفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة».

وقال أستاذ الفلسفة الهندي راما كريشنا راو في كتابه «محمد النبى»: «لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها، لكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نبذة عن حياته من صورٍ متتابعةٍ جميلةٍ، فهناك محمد النبى، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلًا».

و قال المفكر والشاعر الفرنسي «لامارتين»[1] عن رسولنا الكريم فى مقدمة كتابه الضخم «تاريخ تركيا - الجزء الثاني»، الصادر عام ١٨٥٤م: «إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته، فهؤلاء المشاهير صنعوا الأسلحة، وسنوا القوانين، وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجادًا باليةً لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيهم».

ويتابع «لامارتين» في المقدمة التي أصبحت كتابًا مستقلًا فيما بعد حمل عنوان «حياة محمد»، قائلًا: «لكن هذا الرجل «محمد» لم يقد الجيوش ويسن التشريعات ويقم الإمبراطوريات ويحكم الشعوب ويروض الحكام فقط؛ إنما قاد الملايين من الناس فيما كان يعد ثلث العالم حينئذ، ليس هذا فقط؛ بل إنه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة».

وأضاف: «لقد صبر النبي وتجلد حتى نال النصر.. كان طموح النبي موجهًا تمامًا إلى هدف واحد، فلم يطمح إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك، حتى صلاة النبي الدائمة ومناجاته لربه ووفاته وانتصاره حتى بعد موته، لايدل شيء من كل ذلك على الغش والخداع؛ بل يدل على اليقين الصادق الذي أعطى النبي الطاقة والقوة لإرساء عقيدة ذات شقين: الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بمخالفته تعالى للحوادث».

وقال «لامارتين» أيضًا: «ما من إنسان البتة رسم لنفسه إدراك هدف أسمى مما نوى محمد أن يبلغ، إذ كان هدفًا يفوق طاقة البشر، يتمثل في نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق، وإرجاع الله للإنسان، وإرجاع الإنسان لله، وبعث فكرة الألوهية المجردة المقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة، آلهة الوثنية، وما من إنسان

البتة، فى نهاية المطاف استطاع أن ينجز في وقت أوجز ثورة على الأرض أعظم أو أبقى مما أنجز هو».

ويقول الفيلسوف الروسي «تولستوي»[٢] تحت عنوان: «من هو محمد»؟: «إن محمدًا هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمةً جليلةً، ويكفيه فخرًا أنه هدى أمةً برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية؛ وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا لجدير بالاحترام والإجلال».

أما العالم الأمريكى «مايكل هارت» فهو مشهور ومعروف لدى الأوساط العلمية والأدبية، و مؤرخ كبير له نظر بالغ غير مسبوق في التاريخ ودراسة عميقة غير عادية في الأديان، خرج من قلمه السيال كتاب قيم يحمل بين دفتيه تراجم رجال كبار عظماء التاريخ باسم «مئة رجل من التاريخ »، وضع رسولنا على رأس مئة شخصية من الشخصيات التي تصدى لذكرها فقال: «إن اختياري محمدًا ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، لكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي، فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدؤوا رسالاتٍ عظيمةً، لكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، لكنّ محمدًا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته، ولأنه أقام بجانب الدين دولةً جديدةً، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضًا، وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمها».

أما المستشرق الإنجليزي الشهير جورج برنارد شو (المولود: ١٨٥٦/المتوفى: ١٩٥٠م)، فهو من أشهر الغربيين الذين نصفوا الإسلام خلال القرون الماضية. وقال «شو» في مؤلفه «محمد» الذي أحرقته السلطات البريطانية خوفًا من تأثيره: «إن المثل الأعلى للشخصية الدينية عنده هو محمد ﷺ، فيتمثل في النبي العربي تلك الحماسة الدينية، وذلك الجهاد في سبيل التحرر من السلطة، وهو يرى أن خير ما في حياة النبي أنه لم يدّع سلطةً دينيةً سخرها في مأرب ديني، ولم يحاول أن يسيطر على قول المؤمنين، ولا أن يحول بين المؤمن وربه، ولم يفرض على المسلمين أن يتخذوه وسيلةً لله تعالى».

وقال برنارد شو: إن رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصب، قد رسموا لدين محمد صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًا للمسيحية، لكنه اطلع على أمر هذا الرجل، فوجده أعجوبةً خارقةً، وتوصل إلى أنه لم يكن عدوًا للمسيحية، بل يجب أن يسمى منقذ البشرية. وفي رأيه

«لو تولى أمر العالم اليوم، لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

كما قال برنارد شو: «لو تولى العالم الأوروبي رجل مثل محمد لشفاه من علله كافةً؛ بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية.. إنني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشرائط اللازمة، وتكون موافقةً لكل مرافق الحياة، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولًا لدى أوروبا غدًا، وقد بدأ يكون مقبولًا لديها اليوم، ما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد يحل مشاكل العالم».

أما المستشرق البريطاني وليام مونتغمري واط (بالإنجليزية: W. Montgomery Watt) ١٤ آذار/مارس ١٩٠٩ - ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦م) الذي عمل أستاذًا للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة أدنبرة، فكان من أشهر كتبه «محمد في مكة» الصادر عام ١٩٥٣م، و«محمد في المدينة» الصادر في عام ١٩٥٦م، و«محمد: النبي ورجل الدولة» عام ١٩١٦م. وقال عن الرسول الكريم في مقدمة كتابه الأول «محمد في مكة» إنه يأمل في أن هذه الدراسة عن حياة محمدٍ يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال بني آدم.

وفي فصول هذا الكتاب، قال: «إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل هذا يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه، وافتراض أن محمدًا مدّع، يثير مشاكل أكثر ولا يحلها.. بل إنه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللائق بها مثلما فعل بمحمد».

وقال الفيلسوف الفرنسي الشهير روجيه جارودي[٣]، عن الإسلام في كتابه «الإسلام وأزمة الغرب»: «إن الإسلام أنقذ العالم من الانحطاط والفوضى، وإن القرآن الكريم أعاد لملايين البشر الوعي بالبعد الإسلامي ومنحهم روحًا جديدةً».

* * *

الهوامش

(١) شغل «لامارتين» مناصب سياسيةً كثيرةً، وأصبح رئيسًا للحكومة الموقتة بعد ثورة فبراير المشهورة، ونافس نابليون الثالث المعروف في رئاسة الجمهورية، ولكنه فشل واعتزل السياسة، فاشتغل بالتأليف. ومن أهم كتبه (اعترافات)، وقد ولد عام ١٧٩٠م وتوفي عام ١٨٦٩م.

(٢) هو واحد من أعظم روائيي القرن التاسع عشر، فيلسوف روسي، مصلح اجتماعي ومفكر بارز، عرف بواقعيته وتحليله النفسي لشخصياته الشهيرة، من أشهر رواياته «الحرب والسلام» ولد عام ١٨٢٨م وتوفي عام ١٩١٠م.

(٣) روجيه جارودي أو رجاء جارودي (بالفرنسية: Roger Garaudy)؛ (١٧/يوليو١٩١٣-١٣/يونيو٢٠١٢ م) هو فيلسوف وكاتب فرنسي اعتنق الإسلام سنة ١٩٨٢، متزوج من امرأة فلسطينية تدعى سلمى التاجي الفاروقي.

* * *

المراجع:

١- مجلة دعوة الحق (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية). العدد:٣٥١-٣٥٢، محرم ١٤٢١هـ. أبريل ٢٠٠٠م.

٢- الإسلام والمسيحية: أليسكي جورافسكي. عالم المعرفة (الكويت) العدد ٢١٥. نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٦م.

٣- البعث الإسلامي، العدد: ٨/ربيع الأول ١٤٤١هـ، نوفمبر ٢٠١٩م.

صور من مواقف الجاحدين في المكابرة والإعراض

بقلم: الشيخ/ عبد الغني مير غني

أ- القرآن ومكابرة الجاحدين حين تلاوته عليهم:

لقد كره الذين كفروا ما أنزل الله تعالى على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولعل هذه الخصلة الذميمة كانت من الدوافع التي حملتهم على المكابرة والعناد والجحود وإعلان الكفر بالقرآن. ثم إنَّ هذا الإحساس بالكراهية كان يُترجم أحيانًا إلى أعمال دنيئة لا تليق بمقام النبي الكريم، فكانوا حينما يتلو القرآن تظهر آثار الغيظ والألم على وجوههم حتى ليهمون بالبطش به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأحيانًا يستكبرون ويسخرون بالآيات ويفترون على الله الكذب، ويعلنون تصميمهم على الجحود بالقرآن الكريم ونبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾(٣).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٤).

ب- إعراض الكفار عن سماع الإنذار والدعوة:

ومن مواقف الذين كفروا العنيدة، إعراضهم عن سماع الإنذار، وصدهم عن الهدى، ونفورهم عن الحق. فمن شيمهم القبيحة أنهم كانوا كلما سمعوا النبي ﷺ يتلو عليهم القرآن، أو يدعوهم لما يحييهم، أو يذكّرهم بربهم ومصيرهم، يتراجعون على أعقابهم عنادًا واستكبارًا عن الإذعان للحق، كأنما يرون فيه خطرًا وشرًا مستطيرًا. وهم بمسلكهم السلبي هذا أشبه بقطيع من الحمر الوحشية، رأت أسدًا، فامتلأت رعبًا، وفرت لا تلوي على شيء.

ولعل تكذيبهم بيوم الدين، وعدم خوفهم من أهوال يوم القيامة، هو الذي ينأى بهم عن التذكرة وينفرهم هذه النفرة. وأيضًا: فإنَّ عدم تدبرهم للقرآن، وكراهية أكثرهم للحق، وحنق كبرائهم وحسدهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على منزلة النبوة، والطمع أن ينالها كل منهم، وأن يوحى إليه وينزل عليه كتاب ينشر على الناس ويعلن كما أنزل على رسول الله، كل هذا كان من أسباب جحود النافرين

المعرضين عن سماع الإنذار والدعوة.

ولعل ذلك يبدو واضحًا من الآيات الآتية:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[٥].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ...﴾ الآية[٦].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[٧].

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيره قولان: أحدهما – أنَّ (مستكبرين) حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكبارًا عليه واحتقارًا له ولأهله، فعلى هذا: الضمير في (به) فيه ثلاثة أقوال: أحدها – أنه الحرام – أي ذموا مكة – ؛ لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. والثاني – أنه ضمير للقرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث – أنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذَّاب أو مجنون، فكل ذلك باطل؛ بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل: المراد بقوله ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، ويتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه)[٨].

ج– أكابر المجرمين يصدون العامة عن الهدى:

لمَّا نادى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمة الإخلاص في مكة، ودعا الناس إلى توحيد الله تعالى وتَركِ عبادة الأوثان، تلقَّى كبار المشركين هذه الدعوة بالاستغراب والتعجب والمكابرة والاستنكار والسخرية، ووقفوا منه موقفًا شديد العناد والجحود، وأصبحوا يمكرون ويكيدون للدعوة بشتى الطرق والأساليب؛ للحيلولة دون نجاحها والاستجابة إليها. فمضوا يخالفون النبي ﷺ ويكذبونه، ويستخفُّون به، ويتساءلون عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دونهم!

ثم أخذوا يؤلّبون العامة ليلًا ونهارًا على الكفر والجحود، ويحثونهم على التكذيب والتمسك بدين الآباء وأصنامهم، ويحرضونهم على محاربة القرآن الكريم، بأن لا ينقادوا لأوامره، وأن لا يستمعوا له، وأن يجعلوه لغوًا، ويتخذوه هزوًا. وهكذا كانوا يبذلون أقصى جهدهم في تضليل الناس وإغوائهم

وصدهم عن الهدى، مدَّعين لهم أنَّ هذا القرآن ما هو إلا إفك مفترى، وسحر مبين.

قال تعالى: ﴿... وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾(٩).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١٠).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١١).

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾(١٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١٣).

ولقد بيّن الأستاذ سيد قطب السبب الذي يجعل أكابر المجرمين يصدون العامة عن الهدى، فقال:

إنَّ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم.. لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله وفي ظل الاستقامة على هداه. ومن ثم يصدون عن سبيل الله. يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجًا لا استقامة فيها ولا عدالة. وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذٍ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار)(١٤).

* * *

الهوامش:

(١) من سورة الأنفال: آية رقم ٣١-٣٢.
(٢) من سورة الحج: آية رقم ٧٢.
(٣) من سورة سبأ: آية رقم ٣١.
(٤) من سورة الزخرف: آية رقم ٣٠.
(٥) من سورة المؤمنين: الآيات رقم ٦٦-٧٠.
(٦) من سورة فاطر: الآيات رقم ٤٢-٤٣.
(٧) من سورة المدثر: الآيات رقم ٤٩-٥٦.
(٨) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢٤٩، بتصرف.
(٩) من سورة إبراهيم: آية رقم ٢-٣.
(١٠) من سورة سبأ: آية رقم ٣٣.
(١١) من سورة سبأ: آية ٤٣.
(١٢) من سورة ص: الآيات من رقم ٤ إلى رقم ٨.
(١٣) من سورة فصلت: آية رقم ٢٦.
(١٤) في ظلال القرآن ج١٣ ص٢٠٨٦-٢٠٨٧.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

فقال الملك:كيف كان ذلك؟ فقال الوزير: خذ كيسًا فيه ٩٩ دينارًا، واكتب عليه: «كيس فيه مئة دينار». ثم علقه على باب الخادم، فانظر ما يحدث. فاستجاب الملك لرأيه، وانصاع لمشورته.

فلما دخل الليل وأرخى على العالم سدوله، أقبل إلى بيت الخادم، وفعل ما أشار به الوزير. فما إن تنحى عن مكانه حتى رأى الخادمَ يخرج من بيته، فيرى الكيس معلقًا على بابه، وقد كتب على وجهه «فيه مئة دينار». فطار فرحًا، و دخل بيته مسرعًا ليبشر به أولاده وعياله. ففتحوا الكيس، و بدؤوا يعدون الدنانير، فإذا هي تسعة وتسعون دينارًا. فأعادوا تعدادها وإحصاءها، فإذا هي تسعة وتسعون دينارًا. فقال أوسطهم رأيًا: حقًا لقد سقط دينار من الكيس خارج البيت، فلنرجع إلى مكانه عَلَّنا نعثر عليه، فخرجوا عن بكرة أبيهم من البيت يبحثون عن الدينار الواحد الفاقد، فجاسوا خلال الدار، وشرقوا وغربوا، ودخلوا وخرجوا، لايهمهم إلا الدنيار الفاقد الذي أقلق جنوبهم، و كحل عيونهم سهادًا، وملأ جوانحهم اضطرابًا، وباتوا ليلتهم في همٍّ وسهر يعدون النجوم، وأبت أجفانهم أن تنطبق، لايعرفون قرارًا ولايذوقون النوم إلّا غشاشًا وإلا غرارًا لا ينفع، ويسيرًا لايقنع.

ما أذوق النوم إلا غرارًا

مثل حسو الطير ماء الثماد

ونسوا ما ساقه الله إليهم من تسعة وتسعين دينارًا. فلما أصبح الخادم في بيته، وأقبل إلى الملك - في بلاطه ليقوم بما نيط به من أعمال- بوجه كئيب عبوس قمطرير، مضطرب الخطوات، متعثرًا في مشيته، مصفر اللون، هائمًا على وجهه، وينطق محياه بالأرق والسهر، وقد فقد ما كان يرى فيه من نضارة الوجه، وبشاشة الخدين، وسيماء الفرح والسرور، وعلائم النشاط والحيوية. وهنا أدرك الملك مغزى وصفة«٩٩»، وسر الراحة والسرور.

وهكذا البشر صب الله تعالى عليه آلاف النعم، قال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وقال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾. فالنعم ظاهرها وباطنها وصغيرها وكبيرها وخاصتها وعامتها ما هي إلا من الله تعالى.

وكم من ينسى نعم الله تعالى هذه عليه ويتجاهلها، فإذا ما فقد نعمةً واحدةً تصدى لها، ووصل ليله نهاره لحيازتها وجمعها، وتصير كيةً في قلبه وقذىً في عينه، و هَمًّا لايزال يعاوده، ويقض عليه مضجعه بالليل، وينغص عليه العيش في حياته، ويظن نفسه أنه أشقى الأشقياء على وجه هذه البيسطة، وقد جعل الله تعالى عينين و لسانًا و شفتين، وهداه النجدين، ويقول: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٦].

فإذا تعذرت على الإنسان نعمة من النعم أو أصيب في شيء من نفسه وماله بما يجلب الضر أملت عليه أوهامه أنه انتقام من الله تعالى، وتشاءَم به، فيقلُّ شكره، ويكثر غمه وحزنه على فقده لها. وتعود هذه النعمة الواحدة الفاقدة مبلغ علمه ومنتهى آماله ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧].

ونعم ما قال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قطعت رجله بالمنشار لآكلة، وهو صائم، وشيخ كبير فما تضور وجهه ولم يمسكه أحد،وقال: «اللّٰهم، إنه كان لي أطراف أربعة، أخذت منها واحدًا وأبقيت ثلاثًا فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة فأخذت منها واحدًا وأبقيت ثلاثة فلك الحمد. وأيم الله، لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت». وفي رواية: «ما أحسن ما صنع الله إلي، وهب لي سبعة بنين فمتعني بهم ما شاء الله ثم أخذ واحدًا وأبقى ستةً، وأخذ عضوًا وأبقى لي خمسًا، يدين ورجلًا وسمعًا وبصرًا».

فشكر النعمة هو الطريق الذي يؤدي إلى هدوء القلب، وطمانينة النفس، وقرارة العين، و يعوق دون التشت العاطفي والفكري والسلوكي في مختلف الأزمات والمصائب، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]. قال الزمخشري في تفسير الآية: ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح و سهولة، فيعيش عيشًا رافغًا كما قال عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، والمعرض عن الدين، مستولٍ عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة».

* * *

* *

سر الراحة القلبية

ذات يوم كنت أتصفح بعض الكتب القديمة إذ مر بناظري قصة طريفة تحمل كثيرًا من العبر وكثيرًا من العظات خاصةً للإنسان المتكالب اليوم على المادة والمعدة، والمتهافت على الملذات الدنيوية ونعميها، لاهثًا وراء الراحة والطمانينة النفسية والفكرية، يبحث عنها في الأسباب والوسائل التي توفر عليه العيش الرغيد، بعد أن مزّق عليه الدهر راحته، وكدر عليه العيش، فعاد يعاني خواء روحيا شنيعًا.

تقول القصة: كان بعض الملوك يكابد ما يكابده إنسان اليوم من التشتت الفكري، والقلق النفسي، بينما يرى غلمانه وخدمه يعيشون حالةً من السرور و الطمانينة والراحة النفسية ما جعله يغتبط بهم ويحسدهم عليها. فقال لوزير قريب منه مجلسًا وقلبًا: ما لي لا أحظى بالسرور والراحة النفسية رغم ما أملك من الأحمر والأبيض، والقصور والأثاث والرياش، وأليس لي هذه الجنات التي يفجر من خلالها الأنهار تفجيرًا، أليس لي فيها من كل الثمرات من عنب وأب، ورمان، وتين وطلح وهذه المساكن الطيبة؟ وهؤلاء الحاشية والخدم الذين هم تحت أمري، ورهن إشارتي و غمض لحظي يتمتعون من الراحة النفسية بما ليس لي معشاره؟

وكان الوزير ذا عقل ودهاء وحنكة وتجربة حلب الدهر بأشطره، وذاق حلوه ومره، وتغلغل في أغوار نفسية الملوك والحكام، فإن الرجل ذا الرأي يدرك حال صاحبه، وباطن أمره بما قد يظهر له من دله و شكله. وكان على دراية تامة كيف يتصرف معهم، وعلى علمٍ بأن من تكلف من القول والفعل ما ليس من أهله وشأنه كان كحافر البئر لنفسه، والباحث عن حتف بظلفه. فرأى في ذلك رأيًا فيه أمن له، وصلاح أمر الملك، وعون على دوام راحته النفسية ومسرته الروحية. فقال له الوزير: جرب عليه وصفة «٩٩».

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري